غابر الأندلس وحاضرها

تأليف

محمد كرد على

الناشر

شركة نوابغ الفكر

الطبعة الاولى
1431هـ - 2011

شركة نوابغ الفكر
هاتف:25936402 ،فاكس: 27865553
E-mail: nawabgh_elfekr@hotmail.com

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

محمد كرد على ، محمد بن عبد الرزاق بن محمد، 1876-1953
غابر الاندلس وحاضرها /تاليف: محمد كرد على
- ط 1 – القاهرة : شركة نوابغ الفكر ، 2011
202 ص ، 24سم
تدمك :978-977-6305-97-7
1- الاندلس – تاريخ
ا- العنوان

ديوى : 953,071

رقم الايداع : 2011/17097

بسم الله الرحمن الرحيم

الفصل الأول

صدر الكلام ومصادره

زرت فى الشـــتـاء الماضى (١٣٤٠ - ١٩٢٢) بـعض أمـهـــات مـدن الأندلس، فأرادنى غير واحد من الأحباب على أن أحدثهم بطرف مما شاهدت فى ربوعهـا من بقايا حضارة العـرب، فأجبتهـم إلى رغبتهم، شـاكرًا حسن ظنهم، وقد رأيت أن شـفع مشاهداتى، بشىء من مطـالعاتى، عن هذا القطر ليتعرف القارئ من الغابر، وجه الحـاضر، ويقيس فى الجملة ما كان هناك فى عهد أمتنا، على مـا هو كائن اليوم فى عهد غيـرهم، أذكر ما أثره العرب فى تل القاصيـة من حضارة، وأثلوه من مجد خالد على جـبين الدهر، والسبب الذى به ارتفعت الأندلس حتى عدت أرقى مملكة فى عهد شبابها، والأعراض التى عرضت لها، فهرمت فزال سلطانها، وتداعى عمرانها، وأبذعر سكانها، وربما نفعت فى الأخلاف، سيرة الأسلاف، خصوصًا فى أرض لم يكتفوا بأن فتحوهـا، بل عمروها وتديروها، وحكموها، ومدارسة حـياة الأجداد، تربى أخلاق الأبناء والأحفاد، يصيبون فيها حكمة بالغة، وموعظة حسنة، والتاريخ يلقن الفكر الجديد، وينير الطريف بالتليد، والله وارث الأرض ومن عليها.

وهناك ما رجـعت إليه من الكتب والرسـائل فى تأليف الفصول التـالية ومنه تعالى استمد المعونة ومن الراسخين فى العلم تصحيح ما عساهم يعثرون عليه من الهفوات.

(١) طبقات الأمم لصاعد الأندلسى (طبع بيروت).

(٢) نفح الطيب للمقرى (مصر).

(٣) المعجب فى تلخيص أخبار المغرب للمراكشى (ليدن).

(٤) قلائد العقيان للفتح بن خاقان (مصر).

(٥) مطمح الأنفس له (الأستانة).

(٦) البيان المغرب فى أخبار المغرب لابن عذارى (ليدن).

(٧) الإحاطة فى أخبار غرناطة للسان الدين بن الخطيب (مصر).

(٨) رقم الحلل له (تونس).

(٩) الحلل الموشية له (تونس).

(١٠) الذخيرة فى شعراء الجزيرة لابن بسام (مخطوط).

(١١) أخبار العصر فى انقضاء دولة بنى نصر (ميونيخ).

(١٢) التعريف بالمصطلح الشريف لابن فضل الله الغمرى (مصر).

(١٣) المسالك والممالك لابن حوقل (ليدن).

(١٤) أحسن التقاسيم للمقدسى (ليدن).

(١٥) كتاب البلدان لابن واضح اليعقوبى (ليدن).

(١٦) تقويم البلدان لأبى الفدا (باريز).

(١٧) أخبار مجموعة فى فتح الأندلس وذكر أمرائها رحمهم الله والحروب الواقعة بينهم (مجريط).

(١٨) الجزء الثانى والعشرون من كتاب نهاية الأرب فى فنون الأدب

للشورى وفيه أخبار ملوك الأندلس من العلويين والأمويين ومن ملك بعد بنى أمية إلى حين انقراض الدولة العبادية (غرناطة).

(١٩) الذخيرة السنية فى تاريخ الدولة المرينية (الجزائر).

(٢٠) كتاب محمد بن تومرت مهدى الموحدين (الجزائر).

(٢١) عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء فى المائة السابعة ببجاية للغبرينى (الجزائر).

(٢٢) المؤنس فى أخبار أفريقية وتونس لابن أبى دينار (تونس).

(٢٣) ديوان ابن حمد حمديس الصقلى السرقوسى (رومية).

(٢٤) النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى (ليدن).

(٢٥) العيون والحدائق فى أخبار الحقائق (ليدن).

(٢٦) تاريخ المسعودى (باريز).

(٢٧) تاريخ الكامل لابن الأثير (مصر).

(٢٨) تاريخ ابن خلدون (مصر).

(٢٩) الحلة السيراء لابن الأبار (ليدن).

(٣٠) كتاب القضاة بقرطبة للخشنى (مجريط).

(٣١) تكملة التكملة لابن الأبار (مجريط).

(٣٢) التكملة لكتاب الصلة لابن الأبار (الجزائر).

(٣٣) صبح الأعشى للقلقشندى (مصر).

(٣٤) معجم البلدان لياقوت الحموى (ليبسيك).

(٣٥) المكتبة العربية الأندلسية وفيها ستة كتب: وهى الصلة لابن بشكوال وبغية الملتمس لابن عميرة الضبى والمعجم لابن الأبار والتكملة لكتاب الصلة لابن الأبار وتاريخ علماء الأندلس لابن الفرض وفهرست ما رواه عن شيوخه من الدواوين المصنفة فى ضروب العلم وأنواع المعارف أبو بكر بن خليفة الأموى الأشبيلى نشرها المستشرقان الإسبانيان كوديرا وريبرا (مجريط) F. Codera et J. Ribera: Bibliotheca Arabico - Hispana (Madrid).

(٣٦) المكتبة العربية الصقلية لميشل آمارى (ليبسيك) M. Amari: Biblio-theca arabo - Sicula (Leipzig).

(٣٧) محاضرة ابن زيدون لأحمد زكى باشا نشرت فى السنة الثانية من مجلة البيان (مصر).

(٣٨) السفر إلى المؤتمر لأحمد زكى باشا أيضًا.

(٣٩) قصيدة ابن عبدون وشرحها لابن بدرون (ليدن).

(٤٠) رسالة ابن زيدون وشرحها للصفدى.

(٤١) ترجمة ابن عباد (ليدن).

(٤٢) ترجمة ابن زيدون (ليدن).

(٤٣) ترجمة ابن عبدون وملوك بنى الأفطس (ليدن).

(٤٤) قاموس الأعلام لشمس الدين سامى (تركى طبع الأستانة).

(٤٥) مجلة المقتطف.

(٤٦) مجلة المقتبس (مصر والشام).

(٤٧) دائرة المعارف الإسلامية (ليدن) Encyclpedie de l.lslam, Leyde .

(٤٨) تاريخ مسـلمى إسبانيـا لدوزى (باريز) d,Espagne, Paris: Dozy
. Histoire des Musulmans

(٤٩) التاريخ العام للأفـيس ورامبو (باريز) Lauisse et Rombaud: His-
. toire generale, Paris

(٥٠) تاريخ العرب والمغاربة فى إسبـانيا والبرتغال لنكوند (باريز) – J.
Conde: Histoire de la do - mination des Arabes et des Maures
. en Espagne et en Portugal, Paris

(٥١) تاريخ العرب العام لسيديليو (باريز): Sedillol: Histoire generale
. des Arabes, Paris

(٥٢) تاريخ العرب لهوار (باريز)C. Huart:Histoire des Arabes. Paris .

(٥٣) عجالة فى تحليل نفوس الشـعوب الأوروبية لفوليه (باريز) Eouil-
. lee: Essai d,une psy - chologie des peoples europeens. Paris

(٥٤) المخطوطات العـربية فى الأسكوريال لهارتويـغ دار نبورغ (باريز)
Hartiwig Derenbouig: Les manuscripts arabes de l,Escurial,
. Paris

(٥٥) الصنائع فى إسبانيا لكومـيز مورينو (مجريط) Gomez - Moreno:
. El arte en Espana (Madrid)

(٥٦) الكتـابات العربـية فى غـرناطة لإمـيليو لافـوانتى أى التكنتـرار (مجريط) Emilio Lafuente y alcantrara: Inscriptiones ar abes de Grenada (Madrid).

(٥٧) دليل إسبانيـا والبرتغال لبيدكر (ليـبسيك) Baedeker: Espagne et Portugal, Leipzig.

(٥٨) بحث وصـفـى لمصـانع العـرب تـأليف رافـائيل كـــونتـروراس (مجـريط): Raphahel Contreras Etudes descriptiues des monu- ments arabes. Madrid.

(٥٩) تاريخ الأديان العـام لسلمـون ريناخ (باريز): Salomon Reinach Histoire generale des religions, Paris.

(٦٠) إسبانيا فى القرن العشرين لمارفو (باريز) Maruaud: L, Esagne au XXe siecle. Pairs.

(٦١) الإسبانيون والبرتغاليون فى بلادهم لكيلاردى (باريز) Quillardet: Espagnols et Portugais chez eux, Paris.

(٦٢) إسبانيا والبـرتغال مصورتان (باريز) L,Espagne et le Portugal il- lustres. Paris.

(٦٣) دائرة المعارف الأفرنسية الكبرى (باريز) La grande encyclopedie francaise, Paris.

(٦٤) مـعـجم لاروس المـصـور (باريز) Nouueau Larousse illustere, Paris.

(٦٥) بحث فى حيــاة ابن زيدون لأوغســت كور (الجــزائر) Augusle Cour: lbn Zaidon, Alger.

(٦٦) تعليم اللغة العربية فى إسبانــيا لميكائيل آسين بلاسيوس (الجزائر) M.Asin Palacios:l,ens eignement de l,arabe en Espagne. Alger.

(٦٧) معجم الكل فى واحد أو موســوعات العلوم البشرية :Tout en un Encyclopedie des connaissances humaines.

(٦٨) دستور فى الصنائع الإسلامية لسالادين وميجون Saladin et Mge-on: Manuel d,art musulman



الفصل الثانى

تحية الأندلس

عشقتــها ولم تسعدنى الأيام بإمتاع النظر فى جــمالها، واستطعت طلع أخبارها، فروى الرواة عنها عجائب أقلها مما يستهوى النفوس المتمردة، ويأخذ بمجامع القلوب الجـافةالعاصـية، تفردت بين حـيلها بما خصت به من مـعانى الحـسن والأجان، فكثـر الخطاب والطلاب، وهى لا تفـتأ تبـدى لمن حمـاها صنوفًا من اللطف والظرف، وتخاطب البعيـد والقريب بثغر باسم، وترشقهم بنظرات، لا تخلو من غمزات، تريد بها الهزوء بنكبات الزمان، والاستخفاف بسخافة الإنسان.

عشقـتها منذ عهـد الصبا، وعشق الصـبا شديد، لما قرأته الـباصرة من وصف سجاياها وحملته إلى البصيرة ففكرت فيه، وتدبرت خوافيه وحواشيه، وزادنى غرامًا بها مـا سمعت من أن أناسًا قبلى أصيـبوا بما أصبت به، وعدوا النزول فى حــماها ولو ســاعة سعــادة العمـر، وحسنة الدهر: العــشق فنون وعشقى كان لأرض الأندلس، عليها من كل عربى ألف ألف سلام، على مر العصور والأيام.

عشقتها لكثرة ما تــلوت من آثار من درجوا على أديمها من أبنائها وغير أبنائها، وكانت المخلية تتصورها فى مظاهر صح بعضها يوم اللقاء، وآخر كان بالطبع كالخيال، فى الأندلس تم نحو نصف مدينة العرب الباهرة، وقضوا فى أرجائها نحــو ثمانية قرون كـانت بجملتها وتفصـيلها عهد السـعادة والغبطة، ودور ظهور النوابغ وأرباب الإبــداع والقرائح، وكم من أمة من أمم الحـضارة

الحديثة على كثـرة ما اقتبست وأوجدت، لم يتيـسر لها حتى يوم الناس هذان تبلغ مكانة الأندلس فـكان هذا الصقع فى مـنقطع أرض المغرب وآخـر أرض العرب بين البـحرين المحيط والمتوسط برهانًا أزليًـا على فرط استعـداد العرب للعلوم والصناعات وناعـيًا على من أنكروا لإفراطهم فى الشعـوبية فضل هذه الأمة على الحضارة.

أقـام الغربيـون ضروبًـا من المصانع من بيـع وأديار ومتـاحف ومكاتب ومـدارس وجسـور وسدود وطرق ومـعابر وتماثـيل ونصب وبرك، لكنهم لم يصنعوا على كثرة تفننهم فى هذا الشـأن منذ عهد اليونان والرومان، طرزًا من البناء يكلمك ولا لسان له فـيقول، وينظر إليك فيعـمل فى شفاف قلبك ولا عـين له فتنظر، ويطربك بـتسـاوق نغمـاته من دون ما صناجـة ولا وتر ولا ألحان. مصانع كثيرة بقيت بقاياها فى طليطلة وقرطبة وإشبيلية وغرناطة سلبتها الفتن تارة شطرٍ من بهائـها، وسالمتهـا حينًا فأبقت عليـها، أو رممت شيـئًا مما أضرت به عوامل الأيام وإن لم تعد إليها نضرتها الأولى.

سلام على أرض طيبة خصها الخالق بأجمل الهبات الطبيعية الطيبة، فلم ينقصها زكاء ثربة فى نجادها ووهادها، ولا مياهًا عذبة دافقة من هضابها على شعابها، ولا أشجـارًا باسقة وزروعًا خصبة فى سهلـها ووعرها، ولا اعتدال مواسم وجمـال إقليم، ومصحة أبدان زانهـا الصانع السماوى بإيجـاده، كما زانها الصانع الأرضى بإبداعه، وما أجمل الطبيعى والصناعى، إذا تواعدا إلى الاجتماع فى خبر البقاع.

ليالى الأنـس، فى جزيرة الأندلس، وأيامـها الغر، فى سـالف الدهر، فيك قامت سوق الآداب، بما ارتفعت لـه رءوس العرب على غابر الأحقاب،

وكمل فى ربوعك الذوق العـربى حتى ظن بعضهم أنك نسـيت كل شىء ما عدا الأدب، ومـا هذه الآثار الأبدية إلا ثمرة عملك وصناعـاتك وزراعاتك: سلام علـى أرواح علمائك وفـلاسفتك ونوابـغك وأدبائك وأمرائك مـا كان أرجح أحلامهم، يوم سـنوا للعرب سنة الأخذ أمن السعادتـين، وشرعوا لهم شرعة المدنيـة المثلى، حملوا فأجملوا من الشرق إلـى الغرب تعاليم فى الدين والدنيا كانت صفوة العقول إلى عـهدهم فأدهشوا من عاصرهم، وخلفهم من الأجيال، ونسجوا لهم على غير مثال نسيجًا رقيقًا، كتبوا لهم فيه سجلا رقت حواشيـه، ونظامًا متقنًا فى حكم الإنسان للإنسـان، يطبع فى تاليه إذا تدبره، طبيـعة حسن الذوق والطبع، ويـنشئه على أرق مـثال من الخيـال فى الكمال والجمـال مثال حى مـن حضارة العـرب فى القارة الأوروبيـة عامة وفى شـبه جزيرة إسـبانيا خاصـة، يفتخر به العـرب على اختلاف أصقـاعهم وحق لهم الفخر لأن الأندلس العربية الإسلامية كانت وما زالت مدرسة الغرب المسيحى نزل طلابه فى قـرونهم المظلمـة على علماء العـرب فـأوسعـوهم من مكارم أخلاقهم وأكـرموا مثواهم بما علموهم، وما أسـخى العربى على طلب قراه، والمعتـصم بحماه، فلمـا جاء دور الانحطاط، وازف رحـيل ذاك الرعيل، من أرض كان الغرب كله يعدهم فيهـا أثقل دخيل، أبقوا لهم تلك المصانع ناطقة بفضلهم، معلمـة لهم معانى ليست فى معاجم نفـائسهم، ومكذبة على غابر الأيام من ينكر المحسوس، ويغمط الحق لصاحبه، ويسـتهويه الغرض، فيشوه وجه الحق الجميل.

إلى اليـوم لم يزل فى الغـربيين أناس يصـعب عليـهم الاعتـراف بمزية للعرب بباعث من بواعث النفوس اللئيـمة، فلا يكادون يصدقون حتى بما ورد

عن هذه الأمة فى كتــبهم دع كتبهــا من أعمال هذه الحضارة الغــربية وما ذاك الأثر الضئيل الباقى من عاديات الأندلس العربية، إلا برهان جلى على ما كان هناك من عدل شــامل، وعقل كامل، ونظر نافــذ، ويد صناع، أربت على ما عمل من مثلها فى سائر البقاع والأصقاع.

* * *

الفصل الثالث

تقويم الأندلس

أخـذت العـرب اسم الأندلس من اسم سكانـها الأصـليين الفنداليس Vandales فقـالوا فاندالسيـا أوفاندالوزيا Vandalitia أو Vandalusia وأطلقوا عليهـا اسم الجزيرة من باب التغليب فقـالوا جزيرة الأندلس كما قـال جزيرة العب وما هى فى الحقيـقة إلا شبه جزيرة لاتصالها من أقصى الشـمال بجبال البيـرنات أو الثنايا كمـا كان يعرفـها العرب، قـدروا القسم الجنوبى من شـبه جزيرة فـانداليس أو أبيريا أو إسبانيـا بمسيرة ثلاثين يومًا طولا وزهاء عـشرين يومًا عرضًا يحـدها البحر من أطرافها الأربعة إلا من الشمـال الشرقى وميزان وصف الأندلس كما قال ابن سعيد: أنها قد أحـدقت بها البحار فأكثرت فيها الخصب والعمارة من كل جانب.

والأندلس فى عـرف أهلها اليوم عـبارة عن ثمـانى ولايات ولاية ألمرية وولاية قادش وولاية قرطبة وولاية غرناطـة وولاية حولفا وولاية جيان وولاية مالقة وولاية إشبـيلية ومساحتهـا السطحية ٨٦٦٨٧ كيلو مترًا مـربعًا وسكانها زهاء أربعة مـلايين فهى نحو خمس إسـبانيا الحاليـة بسكانها ونحو سـدسها بمساحتها السطحية. هذا ما يطلق عليه اليوم اسم الأندلس بيد أن حكم العرب تجاوز ذلك إلى برشلونة ومـا وراءها من الشرق وإلى لشبونة ومـا جاوزها فى الغرب ولم يبق فى أيدى الإسـبانيين والبـرتغاليين من هـذه الجزيرة التى تبلغ مساحتها زهاء نصف مليون وأربعة آلاف كـيلو متر مربع سوى أراض مصخرة ضئيلة من الشمال تعرف ببلاد الجلالقة وآستوريا.

فالعرب لم يملكوا إذًا الجزيرة بأسرها حين افتتحوها وإنما ملكوا معظمها ولذلك لا تعرف مساحة الأندلس العربية على التحقيق ويقول المسعودى أن مسيرة عمائر الأندلس ومدنه نحو من شهرين ولهم من المدن الموصوفة نحو من أربعين مدينة وقال غيره فى أرض الأندلس العام الغامر فكانت من ثم مساحة الأندلس تختلف بحسب تغلب العرب على أعدائهم أو تغلب أعدائهم عليهم وكم من الأقاليم والمدن فى الشمال والغرب والشرق دخلت مرات فى حكم العرب ثم خرجت عنهم فقد كان عملها لعبد الرحمن بن معاوية فى القرن الثانى ثلاثمائة فرسخ فى ثمانين ثم صغرت فى القرن الثامن حتى أصبحت - كما وصفها العمرى - كمفحص القطاة ضيقُا، ومدرج النمل طريقًا.

لا جرم أن مقام العرب فى الأندلس كان غير طبيعى لمجاورتها لأمم قوية الشكيمة مخالفة لها فى الجنس واللسان والدين حتى أن عمر بن عبد العزيز لما ولى السمح بن مالك عليها أمره أن يكتب إليه بصفتها وأنهارها وكان رأيه انتقال أهلها منها لانقطاعهم عن المسلمين قال المؤرخ وليت الله كان أبقاه حتى يفعل فإن مصيرهم إلى بوار إلا أن يرحمهم الله.

وصف المراكشى ما كان فى أيدى الإسبان والبرتغال من أرض الأندلس سنة ٦٢١ هـ فقال أول المدن فى الحد الجنوبى الشرقى على ساحل البحر الرومى مدينة برشنونة (برشلونة) ثم مدينة طركونة ثم مدينة طرشوشة والمدن التى على غير الساحل فى هذا الحد المذكور مدينة سرقسطة ولاردة وأفراغة وقلعة أيوب هذه كلها يملكها صاحب برشنونة وهى الجهة التى تسمى أرغن. وفى الحد المتوسط ما بين الجنوب والغرب مدينة طليطلة وكونكة وأقليج

وطلبيـرة ومكادة ومشريط (مـجريط) ووبذ وايلة وشقـوبية هذه كلهـا يملكها الأدفنش وتسمى هذه الجهة قشتال. وتجاوز هذه المملكة فيما يميل إلى الشمال قليلا مـدن كثيرة أيضًا وهى سـمورة وشلمنكة والسبطاط وقلمـرية هذه كلها يملكها رجل يعرف بالببوج وتسـمى هذه الجهة ليون. وفى الحد المغربى الذى هو ساحل البـحر الأعظم أقيانس ومدن أيضـًا منها مدينة الأشبـونة وشنترين وباجة وشنتـرة وشنتياقـو ويابرة ومدن كثـيرة يملكها رجـل يعرف بابن الريق ووراء هذه المدن مما يلى بلاد الروم مـدن كثيـرة. ثم ذكر ما يملـكه المسلمون لعهده من الأندلس فـأورد حصن بنشكله وطرطوشة وبلنسيـة وشطبة وجزيرة الشقر ودانيـة ومرسية وغرناطة وحصـون لرقة وبلش وقلية وبسطة ووادى آش وألمرية وحصن منكب ومالقة والجزيرة الخضراء.

وقـوم القلقشندى الأندلس فى المـائة الثامنة فـقال أن الأندلس أقـامت بأيدى المسلمين إلى رأس الستمائة سنة من الهجرة ولم يبق منـا بيد المسلمين إلا غرناطة وما معهـا من شرق الأندلس عرض ثلاثة أيام فى طول عشرة أيام وباقى الجزيرة على سعـتها بيد النصارى الفـرنج وأن المستولى على ذلك منهم أربعة ملوك الأول صاحب طليطلة ومـا معها ولقبه الأدفـونش سمة على كل من ملك منهم وعـامة المغـاربة يسمـونه الفنس وله مملكة عظيـمة وعـمالات متـسعة تشـتمل على طليطلة وقـشتالة وإشـبيلية وبلنسـية وقرطاجنة وجـيان وجليقـية وسائر أعمـالها الثانى صاحـب لشبونة وما مـعها وتسمى البـرتغال ومملكته صـغيـرة واقعة فى الجـانب الغربى وهى تشـمل على لشبـونة وغرب الأندلس الثالث صاحب برشـلونة وأرغن وشاطبة وسرقسطة وبلنسـية وجزيرة دانية ومـيورقـة، الرابع بيرة وهى بـين عمالات قـشتـالة وعمـالات برشلونة وقاعدته مدينة ينبلونة ويقال لملكها ملك البشكنس.

هذا فى الجملة تقويم الأندلس فى القديم وكلما توغلت فى سمت الشمال صعب المرور لكثرة الجبال وترامى المشافات وهى اليوم فى الخطوط الحديدية سهلة فى الجملة فإذا جئت من مدينة باريز وهو الطريق الذى سلكناه تصل إلى مجريط فى ست وعشرين ساعة وهى ١٤٥٥ كيلو متراً ومن مجريط إلى قرطبة ٤٤٢ كيلو متراً ومن قرطبة إلى إشبيلية ١٣١ كيلو متراً ومن غرناطة إلى جبل طارق ٣٠١ كيلو متر ويتأتى اختصار هذه المسافات إذا كانت القطر تقصد إلى البلد مباشرة بدون تنقل أو تعاريج ولكن تقل فيها الخطوط المستقيمة والقاطرات.



الفصل الرابع

فتح الأندلس

لما فتح موسى بن نصير مولى بنى أمية إفريقية وما حولها أى تونس وما وراءها سنة ثمان وسبعين للهجرة وبلغ طنجة سار يريد مدائن على شط البحر وفيهـا عمال صاحب الأندلس قد غلبـوا عليها وعلى ما حولهـا. وكان يليان أحد ملوك الأندلس لموجدة وجدها على بعض الملوك من قومه فى تلك البلاد بعث بالطاعـة لموسى، وأقـبل به حتى أدخله المدائن بـعد أن اعـتقـد لنفسـه ولأصحـابه عهدًا رضـيه، واطمأن إليـه، ثم وصف له الأندلس ودعاه إليـها فبعث رجلا من مـواليه يقال له طريف فى أربعمائة رجل ومـعهم مائة فارس فى أربعة مراكب حـتى نزل جزيرة سميت له لنزوله فيهـا وكانت هذه الجزيرة معبـر مراكبهم ودار صناعـتهم فأغار على الجـزيرة فأصاب شيـئًا ورجع سالمًا وذلك سنة إحدى وتسـعين. ثم دعـا موسى مولى له يقـال له طارق بن زياد فبعثـه فى سبعة آلاف من المسلمين جلهم من البربر والمـوالى ليس فيهم عرب إلا قليل فدخل فى تلك السفن الأربع فى سنة اثنتيـن وتسعين وأخذت السفن الأربع تختلف بالرجال والخيل وضمـهم إلى جبل على شط البحر منيع فنزله وسمى به جبل طارق والمراكب تختلف حتى توافى جميع أصحابه.

ولما بلغـت ملك الأندلس رذريق صـاحـب طليطلة غـارة طـريف على الأندلس جمع جـموعه قيل مائة ألف أو شـبه ذلك فبعث مـوسى على سفن كثيرة كـان عملها بخمسة آلاف مقاتل فـتوافى المسلمون بالأندلس عند طارق اثنى عشـر ألفًا ومعهم يليـان فى جماعة من أهـل البلد يدلهم على العورات

ويتجسس لهم الأخبار فـالتقى رذريق صاحب طليطلة وطارق بن زياد بموضع يقال له البـحيـرة فانهزم رذريق ثم مـضى طارق إلى مضـيق الجزيرة فـمدينة استجة وحارب فل العسكر الأعظم وهزمه ثم ورد طارق عينًا من مدينة استجة على نهرها على أربعـة أميال فسمـيت العين عين طارق وفرق جيـشه فأرسل فرقة إلى قرطبة وأخـرى إلى رية وثالثة إلى غرناطة وسار هو فى عظم الناس يريد طليطلة فـفتحت كلهـا وكذلك مدينة تـدمير وأسـر أحد ملوك الأندلس ومنهم من اعتقد على نفسه أمـانًا ومنهم من هرب إلى جليقية فى الشمال ثم سار طارق حتـى بلغ طليطلة وخلى بها رجالا من أصحـابه فسلك إلى وادى الحجارة ثم استقبل الجبل فقطعه من فج يسمى فج طارق.

وفى سنة ثلاث وتسعين دخل موسى بن نصيـر فى ثمانية عشر ألفًا من وجوه العرب والموالى وعرفاء البربر وقد بلـغه ما صنعه طارق بن زياد فحسده وخشى أن ينال شرف الفتح دونه أمام الخليفة من بنى أمية. فلم يلبث أن فتح من المدن ما لم يفـتحه طارق مولاه فـافتتح مدينة شـذونة وقرمونة وإشبـيلية وحاصـر هذه أشهرًا فهـرب أهلها إلى مدينة باجـة فمضى مـوسى إلى مدينة ماردة وقاتلهم عليها أشهرًا فصـالحه أهلها على أن جميع أموال القتلى وأموال الهاربين إلى جليقية للمسلمين وأمـوال الكنائس وحليها له ثم افتتح سرقسطة ومدائنها.

ذكروا أن المسلمين انتهوا إلى مدينة لوطون قاعدة الإفرنج ولم يبق لأهل الإسلام شىء لم يتغلبـوا عليه مم وراء ذلك إلا جبال قرقوشـة وجبال بنبلونة وصخرة جليقية فأما الصخـرة فلم يبق فيها مع ملك جليقية إلا ثلاثمائة رجل تلفوا بالموت والجوع والحصار فلما لم يبق منهم إلى ثلاثمائة رجل ورأى ذلك

المرتبون على حصارهم استقبلوهم فتركوهم فلم يزالوا يزدادون حتى كانوا سبب إخراج المسلمين من جليقية وهى قشتيلية.

هذه زبدة مما قاله المؤرخون فى فتح الأندلس ولا شك أن قرب سواحلها من شواطئ إفريقية قد ساعد العرب كثيراً على هذا الفتح فإن المجاز أو الزقاق كما كان يسميه العرب بين البرين بر العدوة[1] وبر الأندلس قريب جداً يسخل معه نقل الذخائر والجيش من إفريقية وذلك لأن الزقاق فى موضع يعرف بجزيرة طريف من بر الأندلس يقابل قصر مصمودة بإزاء سلا فى الغرب الأقصى وعرضه اثنى عشر ميلا ومن الجزيرة الخضراء فى الأندلس إلى مدينة سبتة ثمانية عشر ميلا. والباخرة تقطع المسافة اليوم من الجزيرة الخضراء أو جبل طارق إلى طنجة فرضه الغرب الأقصى فى نحو ثلاث ساعات.

وأنت ترى أن معدات الفتح عند العرب كانت قليلة ومع هذا استصفوا الأندلس فى مدة وجيزة وذلك لأن الاختلاط القديم المستحكم للجوار بين أهل الأندلس وبين أهل شمالى إفريقية وتغلب الأندلسيين أحيانا على بلاد البربر أى العغرب الأقصى والأوسط قد هيأ لسكان البلاد بل لقوادها وحكامها من العرب أن يعرفوا معالم الأندلس ومجاهلها ويقفوا على مواطن الضعف

---

(١) العدوة: بضم العين المكان المتباعد ويطلق العرب بر العدوة على ما سامت الأندلس من شمالى إفريقية وبعد عن بلادهم ويعنون بالعدوة المغرب الأقصى والأوسط والأدنى أى مراكش والجزائر وتونس. وقال صاحب التاج وبر العدوة بالأندلس وإليه نسب سهاب الدين بن إدريس عن قاسم بن أصبغ قيده الرشاطى. ولعل العدوة هذه بلدة من بلاد الأندلس ليست مشهورة والمشهور أن العدوة كما قلنا وأيده علماء الجغرافيا من العرب.

من حكوماتها فقد جاءوها والاختلاف بين ملوكها على أشده والبلاد قد جاعت قبل مجيئهم ثلاث سنين (من سنة ثمان وثمانين إلى سنة تسعين) ثم وبئت حتى مات نصف أهلها أو أكثر. وإذا صح أن الملك الأعظم فى طليطلة جيش على العرب مائة ألف مقاتل وهو مستبعد فإن جيش موسى بن نصير البالغ اثنى عشر ألفًا قد تغلب عليه لا بعدده بل بما للعرب من الاضطلاع بأمور الحرب هذا وأهل البلاد كانوا فى الجملة يريدون الخلاص مما هم فيه من سوء الحال ولا سيما اليهود فإنهم كانوا قبل بضع سنين قد ذاقوا الأمرين من حكوماتهم ومواطنيهم المسيحيين فلما جاء العرب الفاتحون كانوا أدلاءهم وأكبر ردء لهم لعلمهم لأنه ينفس خناقهم بالفاتحين وكان المسلمون كلما دخلوا بلدًا جعلوا نصف حاميته من اليهود والنصف الآخر منهم ثقة فى أبناء إسرائيل وضعها المسلمون فيهم مدة كونهم فى الأندلس.

تولى البلاد المفتوحة عمال الدولة الأموية فى الشرق وتعاقب عليها قوادهم ومواليهم منذ سنة ٩٢ هـ وخطب باسم خلفائهم على منابرها ثم خطب مدة قليلة للعباسيين[١] بعد سقوط دولة الأمويين بالمشرق حتى إذا

---

(١) دعا عبد الرحمن بن معاوية لنفسه عند استغلاظ أمره واستيلائه على دار الإمارة قرطبة ويقال أنه أقام أشهرًا دون السنة يدعو لأبى جعفر المنصور متقبلا فى ذلك يوسف الفهرى الوالى قبله إلى أن أفرد نفسه بالدعاء. ويقال أن عبد الملك لن عمر ابن مروان بن الحكم اشار عليه بذلك عند خلوصه إليه إلا أنه لم يعد اسم الإمارة وسلك الأمراء من ولده سنته فى ذلك إلى عهد عبد الرحمن بن محمد الناصر لدين الله فهو الذى تسمى بالخلافة بعد سنين من سلطانه ودعى بأمير المؤمنين لما استفحل أمره واستبان له ضعف ولد العباس وانتشار سلطانهم بالمشرق وذلك فى آخر خلافة المقتدر بالله جعفر بن أحمد المعتضد منهم ذكر ذلك أبومروان بن حيان مؤرخ الأندلس.

كانت سنة ٣٨ جاء من الشرق هاربًا عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان المسمى بالداخل فتغلب بواسطة جـماعة من أهل بيته وموالى آل مروان وربما له من العصبية فى قبائل زنانة أخواله وكانت والدته منهم حتى استولى على الأندلسيين وبذل أهلها له الطاعة فأصلح من شأنها ورفع وأبناؤه وأحفـاد من بعده شـأن خلافـتهم هناك وأجمـعت القلوب على حـبهم وقل المنتقضون على ملكهم المتوثبون على سلطانهم. ولقد أنصف المنصور العباسى عندما لقب عبد الرحـمن الأموى بصقر قريش لأنه «عبر البـحر وقطع القفر. ودخل بلدًا أعجميًا مفردًا، فمصر الأمصار، وجند الأجناد، ودون الدواوين، وأقام سلطانًا بعد انقطاعه، بحسن تدبيره وشدة شكيمته».

انقـرض ملك بنى مـروان من الأندلس سنة ٤٠٧ هـ على رأس مـائتى سنة وثمان وسـتين سنة وثلاثة وأربعـين يومًا بعـد أن جمعـوا الشمل ورأبوا الصدع وأحيوا المعـالم ونشروا العدل وخدموا الحضارة وكـانت أيامهم أعراسًا وأفراحًـا فنفرق الملك بأيدى ملوك الطـوائف فكان «كل ملك لما بيده فـضبط أشراف العـمالات أزمة أمورهـم وركبوا ظهور غـرورهم وتنافسوا فى انتـحا الألقاب السلطانية فأتوا من ذلك بكل شنيعة» إلى أن قام رأس المرابطين وأمير المسلمين يوسف بن تاشفين اللمتونى صاحب الغرب الأقصى وأعاد للبلاد مع ابنه على بن يوسف مالف نضارتها ودعا للخلافة العباسية على منابر الأندلس ولم تزل الدعوة للعباسيـين وذك خلفائها على منابر الأندلس والمغرب إلى أن انقطعت بقيام ابن تومرت مع المصادمة فى بلاد السوس.

تنفس خناق البلاد بالقوة الجديدة التى جاءت بها دولة المرابطين لشد أزر المسلمين فى الأندلس كما عادت إليهـم بعض القوة على عهد الموحدين وكان هؤلاء لا يتوقفون عن نجدة إخـوانهم فى الأندلس حتى أن الخليفة المنصور من

الموحدين لما دنت وفاته جمع بنيه والموحـدين ووصاهم وصايا منها أيها الناس أوصيكم بتـقوى الله «وأوصيكـم بالأيتام واليتـيمة» أراد بالأيتـام أهل جزيرة الأندلس وباليتيمة بلاد الأندلـس إلا أن أحوال الجزيرة اختلت فى أواخر دولة أمير المسلمين على بن يوسف فـأوجب تخاذل المرابطين وتواكلهم وميلهم إلى الدعة وإيثـارهم الراحة وطاعـتهم النسـاء فهانوا على أهل الجـزيرة وقلوا فى أعينهم واجترأ عليـهم العدو واستولى النصارى على كثيـر من الثغور المجاورة لبلادهم وكادت الأندلس تعـود إلى سيرتها الأولى بعـد انقطاع دولة بنى أمية فاسـتدعى على عقـلاء الجزيرة بنى مرين من بر العـدوة فجاءهم أمـيرها سنة ٦٥٨ فى جيش ضخم بالأندلس ثلاثة وخمسين مـسوراً ما بين مدن وحصون وهواول من ملك العدوتين من بنى مرين وجاهد الفرنج فدوخ بلادهم وكانت قبل جوازه إلى الأندلس تستطيل على المسلمـين وملكوا قواعد الأندلس وأكثر حصونها مثل قرطبة وإشبيلية وجيان وشاطبة ودانية ومرسية وغيرها ولم تنتشر للإسـلام راية منذ وقعـة العقـاب[1] سنة ٦٠٩ إلى أن جـاءت رايته وكـانت الحروب والغزوات مـتصلة بين العرب وأعدائهم فى القـرن الخامس والسادس والسابع وكـثيراً ما يؤدى ملوك الـعرب الجزية للإفرنج بعـد أن كان هؤلاء فى القرن الأول والثـانى والثالث الرابع يؤدون إلى العـرب الجزية. ولما أغلظ ابن تاشفـين لألفونس الكلام فى المكاتبـة قال هذا: «بمثل هذه المخاطبـة يخاطبنى وأنا وأبى نغرم الجزية لأهل ملته منذ ثمانين سنة وكان ذلك سنة تسع وتسعين وأربعمائة».

---

(١) هذه الوقعـة وقعة العقـاب هى المعروفة عند الإفـرنج باسم لاس نافاس دى تولوزا Las Nauas de Tolosa وهى قرية من عمل ولاية جيان اشتهرت بانتصار ملوك أرغن وقشـتالة ونافار على العـرب سنة ١٢١٢ - ٦٠٩ هـ وقد ضربوا العـرب ضربة لم يتمكنوا بعدها من التوغل فى بلاد إسبانيا.

وبعد أن زال حكم الموحدين من إسبانيا دخلت فى حكم محمد بن يوسف بن هود من بطليوس إلى مرسية وقرطبة وإشبيلية سنة ٦٢٦ ولما هلك التف المسلمون حول محمد بن يوسف بن الأحمر من أسرة بنى نصر فاستولى على الأندلس سنة ٦٢٩ فدام فيه وفى أعقابه نحو قرنين ونصفًا كان الضعف رائد دولتهم أولا حتى لقد صالح ابن الأحمر ألفونس ملك إسبانيا سنة ٦٦٥ على أن أعطاه نحو أربعين مسورًا من بلاد المسلمين من الشرق فقال أبو محمد الرندى يرثى الأندلس ويستصرخ أهل العدوة من بنى مرين قصيدته المشهورة التى يقول فيها.

دهى الجزيرة خطب لا عزاء له ... هوى له أحد وأنهد ثهلان

أصابها العين فى الإسلام فامتحنت ... حتى خلت منه أوطان وبلدان

فسل بلنسية ما شأن مرسية ... وأين شاطبة أم ابن جيان

وأين قرطبة دار العلوم فكم ... من عالم قد سما فيها له شان

وعاد أمر المسلمين فضعفت وبنو الأحمر آخر ملوك الأندلس يستصرخون الموحدين من أهل العدوة فينجدونهم حتى رسخت أقدام الملوك من بنى الأحمر أو بنى نصر فى بقعة صغيرة من البلاد جعلوا غرناطة عاصمتها ولما انقرضت دولة الموحدين اعتمد بنو الأحمر على قوتهم فى حماية سلطانهم حتى ضعف أمرهم وصحت نية الإسبان على إخراجهم من شبه جزيرة إسبانيا باتفاق إيزابيلا الكاثوليكية وفرديناند واتحاد ملوك أرغن وقشتالة ونافار تحت سلطان واحد وكان خروج آخر ملك من بنى الأحمر من بلاد الأندلس سنة ٨٩٧ هـ وهو يومئذٍ انتهى حكم العرب هناك.

الفصل الخامس

عمران الأندلس

فى أرض أندلس تلتذ نعماء ... ولا يفارق فيها القلب سراء
وليس فى غيرها بالعيش منتفع ... ولا تقوم بحق الإنس صهباء
وأين يعدل عن أرض يحض بها ... على الشهادة أزواج وأبناء
وأين يعدل عن أرض تحث بها ... على المدامة أمواه وأفياء
وكيف لا يبهج الأبصار رؤيتها ... وكل روض بها فى الوشى صنعاء
أنارها فضة والمسك تربتها ... والخز روضتها والدر حصباء
وللهواء بها لطف يرق به ... من لا يرق وتبدو منه أهواء
ليس النسيم الذى يهفو بها سحراً ... ولا انتشار لآل الطل أنداء
وإنما أرج الند استثار بها ... فى ماء ورد فطابت منه أرجاء
وأين يبلغ منها ما أصنفه ... وكيف يحوى الذى حازته أحصاء
قد ميزت من جهات الأرض حين بدت ... فريدة وتولى ميزها الماء
دارت عليها نطاقًا أبحر خفقت ... وجدًا بها أو تبدت وهى حسناء
لذاك يبسم فيها الزهر من طرب ... والطير يشدو وللأغصان أصغاء
فيها خلعت عذارى ما بها عوض ... فهى الرياض وكل الأرض صحراء

«ابن سفر المرينى»

كانت شبه جزيرة إسبانيا فى عمرانها قبل الفتح العربى منحطة عن عامة الممالك الأوروبية. حكمها الرومان وكانوا من خير من شاد بنيانًا، وأقام فى المعمور عمرانًا، ومع هذا لم ينلها من عنايتهم كبير أمر، فلما جاء العرب الفاتحون فى العقد الأخير من المائة الأولى كان عهدهم الأول عهد الفتوح على نحو ما كان عهدهم فى الشام قلما التفتوا فيه إلى تجويد البناء حتى إذا ورد على الأندلس من الشرق بل من دمشق عبد الرحمن الداخل الأموى سنة ١٣٨ هـ نقل مع جماعته أسلوب أمته فى العمران، وكان سبقه إليها جمهور من الشاميين، نقلوا أسلوب بنائهم وعاداتهم وأصول معاشهم، فاعتمدوا فى بناء قصورهم ودورهم على الهندسة الدمشقية فى الغالب، وجعلوا فى الدور فناء أو صحنًا فى وسطه بركة ماء وعلى جانبها الأزهار والأشجار، وتقوم بعض طنوف الطبقة الثانية من البناء على عمد من الرخام وغيره، والدور طبقتان فقط طبقة سفلية للصيف والطبقة العلوية للشتاء ويدخل إلى الدار من دهليز. رسم خطط هذه الدور بادئ بدء مهندسون من الروم ثم أصبحت مع الزمن هندسة خاصة للعرب على ما كان شأنهم فى الشام.

يقول بعضهم أن العرب لما وصلوا إسبانيا لم يكن لهم هندية مخصوصة فقل فيهم كالإسبانيين الإبداع والإيجاد ولكنهم تفننوا فى النقش. وأقدم مصانعهم مسجد قرطبة أنشأه عبد الرحمن الداخل سنة ٧٨٥ م والنقوش فيه والفسيفساء من عمل صناع من الروم ومن هنا نشأت الصناعة العربية وتمثلت فى المساجد والبيع والقصور الحمامات والأبراج والأبواب الحصينة. ومن أغرب المبانى مسجد طليطلة مثال الهندسة العربية وقادة منارة مسجد إشبيلية وكثير من الأرتجة والأبواب ولما استولى الإسبان على إشبيلية جعل ابن الأحمر

غرناطة عاصمته فقام قصر الحمراء وظهرت بدائعه وهو أجمل زهرة من زهرات الصنائع النفيسة التى تفتقت أكمامها بأيدى العرب. وظل صناع العرب فى إسبانيا قرونًا بعد ذهاب دولتهم يعملون فى المصانع الإسبانية ويدخلون فى هندستها بعض أساليبهم فأثروا بها تأثيرًا عظيمًا فى الأبنية المبنية على الأسلوب الغوطى والإيطالى (الرنيسانس).

ولقد كان لملوك الأندلس وأمرائها وقوادها وعامة من تولوا خطط الحكم والقضاء والحسبة غرام باستكمال فخامة الملك وتشييد القصور، وجلب المياه، وبناء الأرصفة، وإقامة القلاع والحصون. بدأ بذلك عبد الرحمن الأول وجرى آل بيته وعظماء مملكته على قدمه فى هذا الشأن ومنهم عبد الرحمن بن الحكم (٢٣٨) الذى كان «أول من جرى على سنن الخلفاء فى الزينة والشكل وترتيب الخدمة وكسا الخلافة أبهة الجلالة فشيد القصور، وجلب إليها المياه، وبنى الرصيف، وعمل عليه السقائف، وبنى المساجد الجوامع بالأندلس، وعمل السقاية على الرصيف، وأحدث الطرز، واستنبط عملها، واتخذ السكة بقرطبة، وفخم ملكه، وفى أيامه دخل الأندلس نفيس الوطا وغرائب الأشياء». ومنهم عبد الرحمن بن محمد الذى قال فيه صاحب العقد: «أن الملوك لم تزل تبنى على أقدارها ويقضى عليها بآثارها وأنه بنى فى المدة القليلة، ما لم تبن الخفاء فى المدة الطويلة نعم لم يبق فى القصر الذى فيه مصانع أجداده، ومعالم أوليته، بقية إلا وله فيها أثر محدث إما تزييد أو تجديد».

كانت البلاد نسقًا واحدًا فى العمران حتى كان للقرى أيضًا نصيب وافر من العناية ولذلك كثر عددها حتى قالوا أنه كان على الواد الكبير فقط أربعة

عشر ألف قرية فكنت على رواية ابن سعيد إذا سافرت من مدينة إلى مدينة لا تكاد تنقطع من العمارة ما بين قرى ومياه ومزارع والصحارى فيها معدومة أى فى القسم الذى تأصل فيه حكم العرب. ومما اختصت له أن قراها فى نهاية من الجمال لتصنع أهلها فى أوضاعها وتبيضها لئلا تبنو العيون عنها بل هى طراز من مناظر قد التفت بالبياض والزخرفة تخطف بالأبصار وعند وقوع شعاع الشمس عليها.

لاحت قراها بين خضرة أيكها   كالدر بين زبرجد مكنون

قويت حركة العمران بالطبع حيث كان يقيم الخليفة والسلطان ولما ابتنى عبد الرحمن بن محمد فى غربى قرطبة مدينة الزهراء خط فيها الأسواق وابتنى الحمامات والحانات والقصور والمتنزهات واجتلب إلى ذلك بناء العامة، وأمر مناديه بالنداء، إلا من أراد أن يبنى دارًا أو يتخذ مسكنًا بجوار السلطان فله أربعمائة درهم فتسارع الناس إلى العمارة فتكاثفت وتزايدوا فيها فكادت أن تصل الأبنية بين قرطبة والزهراء والمسافة أربعة أميال.

كان بناء الأندلسيين بالآجر والحجر وكان الحجر عندهم أنواعًا منه الحموى والأحمر والأبيض والمجزع وكانوا ينحتون السوارى والعمد من مقالعهم على الأغلب. وقيل أن سوارى جامع قرطبة جلبت من البيع القديمة من جنوبى فرنسا وإيطاليا ومن إفريقية والآستانة وسواء قطعت من مقالع الأندلس أو جلبت من القاصية فإن فى ذلك فضلا كبيرًا للعرب يدل على معرفتهم الأشياء الحسنة وقدرتهم على حمل هذه الأثقال فى البر والبحر مع قلة الآلات الرافعة وقصور علم الحيل عما هو عليه فى عصرنا.

قال أحد الباحثين من الفرنجة: فى إسبانيا ميدان لدرس الصناعة العربية

المغربيــة منذ بدايتها وكان التــردد بادئ باديًا عليها إلى أن ظهــرت فى مظهرها هذا على غــاية من الغرابة والظرف. وقــال بعضــهم أن الهندسة الــعربيــة قد أفرغت جــهدها فى قصــور الحمراء وأتت ما وســعها الإجــادة والظرف بأمثلة تأخذ بمجــامع القلوب فى العــمران ولو لم يكن جل الاعــتماد علــى الخشب والحص فى البناء وهما مما تقل متانته لأتت منها آثار خالدة أكثر مما أتت ولكن مجموعهــا مدهش غريب يمجد خيمــة العرب الرحل فى البادية. ومن أغرب ما اصطنعوه عــمل المقرنص فى القباب مؤلفًــا من عدة قباب صغرى مــتناسقة بدون أن ترى اللحمــة بينها والنقش فــيها قليل إلا مــا كان من جــمل نقشت بالحروف الكوفية أو العربية المشتبكة الأندلسية.

قلنا ومــعظم الآثار التى بناها الإسبــان بعد ســقوط آخــر دولة الأندلس كانت بأيدى صناع من العرب أبقوا عليهم لقيــام مصانعهم وذلك لأن الإسبان كانوا متأخرين فى الهندسة والصنائع النفيــسة وأهم ما يتنافس فيه الإسبان إلى اليوم القيشانى فإنك تراه فى كل بيت وكنيــسة وحائط ونزل ومدرسة ومتحف وهو أنواع منه ما يجــعل على الأرض ومنه ما يجعل على طول قــامة الإنسان فى الجدران المختلفــة وللآجر عندهم شأن عظيم فى البناء وقد يدم قــرونًا كما شاهدنا ذلك فى خرائب الفسطاط بمصر وأكثره من بناء القرن الأول للهجرة.

يصعب تعداد المصانع التى شادها العرب فى أوقات مختلفة فى الأصقاع التى نزلوها كــما يصعب إعطاء حكــم تام على معالمهم لأن كــثيــرًا من بنيان الأندلس عور بتداول الأيام فــصح فى مدنها ودسا كرهًا أحــد الأندلسيين فى بلنسية وقد عاث العدو فيها:

عــاثت بســاحــتــك الظبــا يا دار ومــحــا مــحــاسنك الــبلى والنار

فـــــإذا تردد فى جــنابك نــاظر طال اعــتــبــار فيــك واستــعــبــار

أرض تقــاذفت الخطــوب بأهلهــا وتمخـــضت بخـــرابهــا الأقـــدار

كتــبت يد الحدثان فى عرصــاتها لا أنــت أنــت ولا الــديــار ديــار

* * *

الفصل السادس

أهل الأندلس

كان الجيش الذى فتح الأندلس بادئ بدء مؤلفًا من قليل من العرب ومن البربر سكان الغرب الأقصى والأوسط وما إليهما. نزل كل فريق منهم فى بقعة فأعمرها وأقطعهم القواد ما رحل عنه أهله من المزارع والمداشر. وقد فرق الحسام بن ضرار الذى ولى إمارة الأندلس فى سنة ١٢٥ وخضعت لسلطانه جميع العرب الشاميين الغالبين على البلد وأبعدهم عن دار الإمارة قرطبة إذ كانت لا تحملهم وأنزلهم مع العرب البلديين أى السابقين إلى الأندلس فى سنة الفتح سنة ٩٢ للهجرة والشاميون هم الذين دخلوا سنة ١٢٥. أنزلهم على شبه منازلهم فى كور شامهم وتوسع لهم فى البلاد فأنزل فى كورتى أكشونبة وباجة جند مصر مع البلديين الأول وأنزل باقيهم فى كورة تدمير وأنزل فى كورتى لبلة وإشبيلية جند حمص مع الأول أيضًا وأنزل فى كورتى شذونة والجزيرة جند فلسطين وأنزل فى كورة رية جند الأردن وأنزل فى كورة ألبيرة جند دمشق وأنزل فى كورة جيان جند قنسرين أى حلب وجعل لهم ثلث أموال أهل الذمة من العجم طعمة. وبقى العرب البلديون من الجند الأول على ما بأيديهم من أموالهم لهم يعرض لهم فى شىء منها. فلما رأوا بلادًا شبه بلادهم خصبًا وتوسعة سكنوا واغتبطوا وتمولوا.

قال ابن الخطيب: أنزلوا القبائل الشامية فى كور على شبه منازلهم التى كانت فى كور شامهم وجعل لهم ثلث أموال أهل الذمة طعمة وبقى العرب والبلديون والبرابرة شركاءهم وسكنوا واغتبطوا وكبروا وتمولوا إلا من كان نزل

منهم لأول قدومه موضعًا رخيًا فإنه لم يرتحل وسكن به مع البلديين. وحكى غيره أنه نزل فى ألبيرة من كان قدمـها من جند دمشق من مضر وجلهم قبس وأفناء قـبائل العـرب ونزل رية جند الأردن وهم يمن كلهم من سـائر البطون ونزل شذونة جند حمص وأكـثرهم يمن وفيهم من نزار نفر يسـير ونزل مدينة الجزيرة البربر وأخلاط من العرب قليل فى حيان جند قنسرين والعواصم وهم أخلاط من العرب من معد واليمن ونزل قبائل البربر مدينة بلنسية.

وما عـدا قبائل العـرب والبربر الذين تفرقـوا فى بلاد الأندلس على ما رأيت كان فيها أخلاط من الشعوب من رومان وغوط ومهاجرة من أقطار شتى فامتـزجوا كلهم فى بودقة واحـدة. قال هوار: ولما أصبح عبـد الرحمن ملكًا على جميع إسبانيا الإسلاميـة (٣٢٠ - ٩٣٢) استند لقتال طبقة الأشراف من نسل العرب المهـاجرين على الإسبانيـين الذين دانوا بالإسلام وعلى كثـير من الإسرائيليين والمسيحيين فـتوصل بذلك إلى جعل الكل أمة واحدة عرفت فى الشرق باسم الأندلس.

ولقد اسـتمرت قـبائل العرب الشـاميـن «فى غمار من الروم يعـالجون فلاحة الأرض وعمران القرى يرأسهم أشياخ من أهل دينهم أولو حلكة ودهاء ومداراة ومـعرفة بالجـباية اللازمـة لرؤوسهم» فاحـتفظ العـرب بسكان البلاد الأصليين وهيـأوا السبل لدخول المـهاجرين إليـها من المسلمين على اخـتلاف عناصرهم ومن غيرهم فأسلم كثـير من أهل البلاد واختلطت أنسابهم بأنساب الغرب وكان المغلوبون يقلدون الغالبين لأول الأمر فى مناحيهم وعاداتهم شأن المغلوب مع الغالب قال فوليه: بعد أن حكم العرب إسبانيا قرونًا دخلتها كمية وافرة من الدم الأفريقى فكان ذلك من موجبات ارتقاء العقل فى إسبانيا ومزج

الدم الإسبانى بالدم العربى هو ولا شك من جملة الأسباب التى تحمل بالإسبان على اختلاف أصقاعهم إلى الطموح إلى العظائم ومراتب الشرف اهـ.

ولما دب الضعف فى الأندلس أصبح العرب يتشبهون بجيرانهم من الإفرنج. روى المقرى: أن بنى الأحمر كثيراً ما يتزيا سلاطينهم وأجنادهم بزى النصارى المجاورين لهم. وذكر ابن خلدون أوائل المائة التاسعة أن أهل الأندلس يتشبهون باسم الجلالقة "فى ملابسهم وشاراتهم والكثير من عوائدهم وأحوالهم حتى فى رسم التماثيل فى الجدران والمصانع والبيوت حتى لقد يستشعر من ذلك الناظر بعين الحكمة أنه من علامات الاستيلاء" فبعد أن كان القشتاليون والجلالقة دع أبناء الأندلس من غير المسلمين يتشبهون بالعرب أصبح هؤلاء فى أواخر أيامهم يتشبهون بهم شأننا اليوم مع أمم الغرب نقلدهم فى أزيائهم ولباسهم وعاداتهم ونفسح المجال لكل ما ينفقونه علينا من بضائعهم العلمية والاجتماعية سنة الله فى الضعيف مع القوى.

امتزج المستعربة Lesmozarabes أو المسيحيون الذين يتكلمون بالعربية فى الأندلس بالقادمين عليها فلقى المعاهدون منهم رعاية من الفاتحين اللهم إلا فى الأدوار التى كانوا يكيدون فيها للمسلمين ويخرجون عن الذمة فإن الفقهاء كانوا يفتون بتغريبهم وإجلائهم عن أوطانهم وقد أجاز منهم يوسف بن تاشفين إلى بر العدة «عدداً جماً أنكرتهم الأهوار وأكلتهم الطرق وتفرقوا شذر مذر" على أنه لم يقع شىء من هذا القبيل إلا فى النادر لأن العرب كانوا يحرصون على بقاء أهل البلاد فيها ليعمل التطور عمله فيسلم من يسلم مع الزمن منهم أو يعطى الجزية ويتعلم العربية فتخف الفوارق بينه وبين أهل عصبية الفاتح».

فـمن ثم ساع لنا أن نـقول أن أهل الأندلس لم يكـونوا كلهم من نسل العرب بل كان منهم العرب قال صـاحب فرحة الأنفس: أهل الأندلس عرب فى الأنساب والعزة والأنفة وعلوا لهمم وفصاحة الألسن وطيب النفوس وإباء الضيم وقلة احتمال الذل والسماحة بما فى أيديهم والنزاهة عن الخضوع وإتيان الدنيـة. هنديون فى إفـراط عنايتـهم بالعلوم وحـبهم فـيـها وضـبطهم لهـا ورواياتهم. بغداديون فى نظافـتهم وظرفهم ورقة أخلاقهم ونبـاهتهم وذكائهم وحـسن نظرهم وجـودة قـرائحـهم ولطافـة أذهانهم وحـدة أفكارهم ونفـوذ خواطرهم. يـونانيون فى استنبـاطهم للميـاه ومعـاناتهم لضروب الغـراسات واختـيارهم لأجناس الفواكـه وتدبيرهم لتركـيب الشجـر وتحسينهم للبـساتين بأنواع الخضر وصنوف الزهـر فهم أحكم الناس لأسباب الفلاحـة وهم أصبر الناس على مطاولة التـعب فى تجويد الأعـمال ومـقاسـاة النصب فى تحسـين الصنائع وأحـذق الناس بالفـروسيـة وأبصرهم بـالطعن والضرب. وقـال ابن حـزم: أن أهل الأندلس صيـنيون فى إتقـان الصنائع العـمليـة وإحكام المهن الصورية. تركيون فى معاناة الحروب ومعالجة آلاتها والنظر فى مهماتها. وقال ابن بسام: فى جزيرة الأندلس أشراف عرب المشـرق افتتحوها وسادات أجناد الشام والعراق نزلوا فيها فبقى النسل فيها بكل إقليم على عرق كريم.



الفصل السابع

تسامح العرب

العرب من أكثر الأمم تسامحًا مع المخالفين لهم فى المعتقد والجنس واللسان، ولولا تسامحهم أيام عزهم بالإسلام، لم يبق بقية من الأمم المغلوبة فى بلادها محتفظة بدينها ولسانها ومقدساتها، وذلك لأن الشريعة السمحاء تقضى بالرفق والرحمة، وعدم التعرض لدين المخالفين وأموالهم خصوصًا إذا كانوا أصحاب دين سماوى، ولذلك اكتفوا من أهل الأندلس بجزية[1] وتركوا

---

(١) هذا كتاب الصلح الذى كتبه عد العزيز بن موسى بن نصير لتدمير بن غبدوش (غيدوس) الذى سميت باسمه تدمير إذ كان ملكها ونسخة هذا الكتاب: بسم الله الرحمن الرحيم كتاب من عبد العزيز بن موسى بن نصير لتدمير بن غبدوش أنه نزل على الصلح وأن له عهد الله وذمته وذمة نبيه صلى الله عليه وسلم إلا يقدم له ولا لأحد من أصحابه ولا يؤخر ولا ينزع عن ملكه وأنهم لا يقتلون ولا يسبون ولا يفرق بينهم وبين أولادهم ولانسائهم ولا يكرهوا على دينهم ولا تحرق كنائسهم ولا ينزع عن ملكه ما تعبد ونصح وادى الذى اشترطنا عليه وأنه صالح على سبع مدائن أوريوالة وبلنتلة ولقنت وموله وبقسرة وأية ولورقة وأنه لا يؤدى لنا آبقًا ولا يؤدى لنا عدوًا ولا يخفف لنا آمنًا ولا يكتم خبر عدو علمه وأن عليه وعلى أصحابه دينارًا كل سنة وأربعة أمداد قمح وأربعة أمداد شعير وأربعة أقساط طلا (شراب من العنب غير مخمر وهو أشبه بالصليبة فى بلاد الشام) وأربعة أقساط خل وقسطى عسل وقسطى زيت وعلى العبد نصف ذلك شهد على ذلك عثمان بن أبى عبدة القرشى وحبيب بن أبى عبيدة . . . ابن ميسرة الفهمى وابو قائم الهذلى وكتب فى رجب سنة أربع وتسعين من الهجرة.

لهم حريتهم، فأعجب بهم مخالفوهم، لأنهم حملوا إليهم سلامًا، وكفوهم مؤونة فتن كانت عليهم غرامًا، تأتى على الأنفس والنفائس. وتدك معالم الأمن والأمان.

كره العرب التعصب ولا سيما فى الأندلس وعمدوا إلى كل تسامح معقول فاستمالوا بسيرتهم من نزلوا من الإسبانيين والبرتغاليين حتى أنهم كانوا (سيديليو) إذا شجر خلاف بين مسلم ومسيحى من الجند يعطى الحق غالباً للمسيحى وجعلوا أيام الآحاد أيام عطلة بدل الجمع ورخصوا أن يتعبد كل إنسان على الصورة التى يراها فنشأت وحدة بين الغالب والمغلوب حتى لم يكد يشعر هذا إلا فى النادر وبإغراء رجال الدين أنه مغلوب على أمرة فاقد لاستقلاله واعتمد الأمويون فى أكثر أيامهم على جيش من الصقالبة يشترونهم أو يأخذونهم أسرى كما كان يفعل العثمانيون بجيش الإنكشارية وصارت لأفراد من الصقالبة حظوة عند الملوك والأمة حتى أن حبيبًا الصقلبى من فتيان الأموية بقرطبة ألف كتابًا تعصب فيه لقومه سماه (بالاستظهار والمغالبة على من أنكر فضائل الصقالبة). وربما كانت منزلة الصقالبة بقرطبة منزلة الشعوبية أعداء العرب فى بغداد ولا من ينكر عليهم. ومن أثر التسامح شاعت اللغة العربية فى كل أرض نزلها العرب بل لم يمض أكثر من نصف قرن حتى اضطر رجال الكنيسة أن يترجموا صلواتهم بالعربية ليفهمها المسيحيون لأن هؤلاء زهدوا فى اللغة اللاتينية ونشأ لهم غرام بالعربية فأخذوا يتقنون آدابها ويتغنون بأشعارها ويكتبون فيها كأبنائها ويعجبون ببلاغتها إعجاب أهلها بها.

وكان كثير من أذكياء الجلالقة والقشتاليين والليونيين والنافار بين دع من كانوا فى البلاد التى فتحتها العرب من المسيحين يتعلمون العربية ويقصدون

الخليفة الأندلسى أو أحد رجاله يستخدمون فى الإدارات وتجرى على سادات الإسبان أحكام الإسلام فيختلطون بأشراف العرب ومن ظل محتفظًا منهم بدينه نسى مبادئه فصار يجب نساءه كالمسلمين ويقتدى بأزيائهم وألبستهم وعاداتهم فى مآدبهم ورفاهيتهم وأنسهم. ومن المسيحيين والإسرائليين من وزروا الأندلس لملوك المسلمين وهم مقيمون على دينهم ومنهم من كان أبوه أو جده إسبانيًا فأسلم(١) والمسلمون لا يضنون بشىء على أهل ذمتهم يجرون عليهم الرواتب والأرزاق كما تجرى على بطانتهم وأهل نحلتهم ويأمنون الأطباء منهم على أرواحهم وحرمهم وشاع زواج العرب بالإسبانيات والبرتغاليات اللائى كن بجمالهن أجمل صلة لتمازج الفاتحين بخصومهم والتحام القرابات بينهم بل أن ملوك المسيحيين على عهد توزع الأندلس بين ملوك الطوائف أمسوا يتزوجون من بنات الأمراء المسلمين فقد تزوج ألفونس السادس بزايدة ابنة أمير إشبيلية وعقد مثل هذا الزواج كثيرًا وكان عدد المتزوجات من الإسبانيات والبرتغاليات بالمسلمين وعدد المسلمات المتزوجات من الإسبانيين والبرتغاليين آخر أيام الأندلس كثيرًا جدًا حتى جرى لذلك كلام فى الشروط التى تمت بين العرب الغالب والمغلوب.

ومن العرب من آثر زى الإسبانيين من الملابس والسلاح واللجم والسروج وكلف بلسانهم مثل محمد بن مردنيش صاحب بلاد شرق الأندلس (٥٦١) وكثير من الوزراء كانوا يعرفون لسان جيرانهم مثل محمد بن الحاج (٧١٤) ويتشبهون بهم فى الأكل والحديث وكثير من الأحوال والهيئات.

---

(١) راجع نبذة فى امتزاج العرب بالعجم فى إسبانيا والاستشهاد على ذلك بالأسماء والألقاب فى كتاب (السفر إلى المؤتمر).

هذا ما عمله الغـالبون المسلمون من العرب مع المسيـحيين المغلوبين من الإسبـان والبرتغاليـين أما معـاملاتهم للإسرائلين فكانـت أيضًا مما يدهش له فأصبح لهؤلاء فى الأندلس منزلة سامـية فى العلم والصنائع والتجارة وكانت غرناكة فى القرن العاشر تدعى مدينة اليهود لكثرتهم ومكانتهم فيها.

أصبح أهل البـلاد يتكلمون بالإسبانيـة والبرتغالية والعربيـة على السواء وأخذوا بعد حين لا يتعاقدون بينهم إلا باللغـة العربية وقد وجد من عقودهم نحو ألفى صك من هذا القبيـل كتبها المستعربة من الوطنـيين الأصليين باللغة العربيـة والعربية كانت لسـان القائمين بالدولة الإسـلامية هجر مـا عداها فى جميع الممالك فصار استعمال اللسان العربى من شعائر الإسلام وطاعة العرب وهجر الأمم لغاتهم وألسنتهم فى جميع الأمـصار والممالك التى خفقت عليها رايات الفاتحين وصـار اللسان العربى لسانهم حتى رسخ ذلك لغـة فى جميع أمصارهم ومدنهم وصارت الألسنة العجمية دخـيلة فيها وغريبة عنها قاله ابن خلدون.

ولذا آلت ثلاثة قـرون على بقايا الإسـبـانيين المتـراجعـين إلى الجبـال الشمـالية وقـد نسيت تقاليـد البلاد إلا من اسـتوريا من الأصـقاع واضطرت الحكومات الـصغرى التى اعـصتـمت فى أقصى الشـمال أن تصانـع وتعاهد ولتعلم من أعـدائها وهم أرقى منها نظامًـا ومدنية وحكومـات أوروبا الكبرى لذاك العهـد تطلب رضاها وتتعلم منهـا وتتلطف معهـا حتى بلغ الأمر لعـبد الرحمن الثالث الذى أشبه ملكًا من مـلوك هذا العصر لا ينقاد لأوهام العنصر والدين ولا يتوقف فى أمر فيه مصلحته وتسـير سياسته بحسب الأحوال - أن وجد له حلفـاء من زعيم البـربر إلى ملك إيطاليا إلى إمـبراطور القسطنـطينية

وكانت سفراء فرنسا واليونان والألمان تتوارد على قرطبة وقد وضع هذا الخليفة حدًا للحروب بين العرب والإسبانيين والبربر فى الأندلس وحصن حدود مملكته من ملوك ليون وقشتالة ونافار واستولى بأسطوله على غربى البحر المتوسط وبسط سلطانه على إفريقية الشمالية فكان ميسين[1] العلوم والفنون وحامى التجارة والصنائع وقد أصبحت إسبانيا العربية على عهده وعهد أخلافه فى القرون الوسطى أكثر البلاد مدنية وحسن إدارة - قالته دائرة المعارف الإسلامية.

لا جرم أن خلفاء الأندلس كانوا من التسامح من الكافة بالمكان الذى يغبطون عليه ويجب التنويه به لأنه لم يسبق له نظير فى عصورهم عند الأمم الأخرى فقد جاء من خلفائهم من كانوا يبيحون لدعاة النصرانية أن ينشروا دينهم أحرارًا وبلغت الحال ببعض المتحمسين منهم أن كانوا يقفون على أبواب الجوامع ليتسقطوا المسلمين بالدعوة إلى دينهم وكان عبد الرحمن الثانى عزم أن يجمع مجمعًا مقدسًا من النصارى برئاسة رئيس أساقفة إشبيلية لقمع عادية التعصب الإسبانى إذا أخذ دعاة الدين المسيحى يسبون الإسلام جهارًا حتى يقتلوا فى سبيل دعوتهم وتكتب لهم الشهادة بزعمهم ولكن الخليفة مات قبل التئام هذا المؤتمر سنة ٢٣٨.

ولطالما أرخى خلفاء الأندلس العنان لخطبائهم ووعاظهم ومؤرخيهم وكتابهم يوسعون المجال لأقلامهم وألسنتهم حتى فى أعمال الخلفاء ولا

---

(١) ميسين هو نديم أغسطس قيصر الرومانى استعمل نفوذ مولاه لتنشيط الآداب والعلوم فأغدق نعمه على فرجيل وهو راس وبروبروس وأصبحت كلمة ميسين مرادفة لحامى الآداب والعلوم والفنون ومات فى السنة الثامنة قبل المسيح.

يجدون منهم إلا لطفًا وعطفًا ذلك الناصر كان كلفًا بعمارة الأرض وإقامة معالمها وتكثير مياهها واستجلابها من أبعد بقاعها وتخليد الآثار الدالة على قوة ملكه وعزة سلطانه وعلو همته فإنه لام ابتنى الزهراء واستفرغ وسعه فى تنجيدها وإتقان قصورها وزخرفة مصانعها انهمك فى ذلك حتى عطل الجمعة بالمسجد الجامع فقرعه القاضى منذ بن سعيد قاضى الجماعة بقرطبة بخطبة على المنبر أمام جمهور المؤمنين ابتدأها بقوله تعالى ﴿أتبنون بكل ريع آية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون وإذا بطشتم بطشتم جبارين فاتقوا الله وأطيعون واتقوا الذى أمدكم بما تعملون أمدكم بأنعام وبنين وجنات وعيون إنى أخاف عليكم عذب يوم عظيم﴾ ثم أفضى ذكر المشيد والاستغراق فى زخرفته والسرف فى الإنفاق عليه فجرى فى ذلك طلقًا وتلا فيه قوله تعالى ﴿أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خيرًا أمن أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به فى نار جهنم والله لا يهدى القوم الظالمين لا يزال بنيانهم الذى بنوا ريبة فى قلوبهم إلا أن تقطع قلوبهم والله عليم حكيم﴾ وأسرف الخطيب فى ترويع الخليفة وتقريعه ولم يحسن السياسة فى وعظه فاستشاط الخليفة غضبًا وأقسم أن لا يصلى خلف الخطيب الجمعة أبدًا فقال له الحاكم. وما الذى يمنعك عن عزل منذر بن سعيد والاستبدال به فزجوه أبوه وانتهره وقال: أمثل منذر بن سعيد فى فضله وورعه وعلمه وحلمه لا أم لك بعزل فى إرضاء نفس ناكبة عن الرشد.

مثال آخر: شنع أحد المؤرخين على أحد الملوك المعاصرين فى الأندلس فخنق ابن الملك وهم بقتل المؤرخ فلما شعر أبوه بذلك قال له إليك عن هذا الفكر الخبيث ولئن قتلته لأكونن أنا المطالب بدمه. لقتله ليعيرنا الناس بأننا

نقتل مؤرخينا. حتى إذا مضت أيام دخل المؤرخ الحمام ليستحم فلما خرج ليلبس ثيابه رأى فيها صرة تضم ألف دينار ورقعة من الملك يقول فيها أن الذى أوصل إليك هذه الدراهم وأنت لا تشعر قادرين أن يرسل إليك من يقتلك فكف غرب لسانك عنا وإذا عدت فأرخت ثانيًا لا تشنع علينا أعمالنا. قال دوزى إذا قيست حرية العرب بحرية الإفرنج تشبه هذه الاستبداد.

وما زال هذا التسامح لمحمود حتى انتقل ملك العرب فى الأندلس إلى المرابطين والموحدين وكانوا أفريقيين لا يخلون من شىء من التعصب وليس فيهم تسامح الأمويين العرب فتبدلت الحال بعض الشىء وذهبت أو كادت طلاوة تلك المدنية التى أقاموها وكانت لا بالغربية ولا بالشرقية فبهر خبرها ومخبرها لولا أن قام الملوك من بنى نصر فى غرناطة ورأبوا الصدع وجبروا الكسر وكانوا كلما صغت رقعة ملكهم زادت الرقعة الباقية ارتقاء فتنتقل القوة والنفوس من بلد زال عنها سلطانهم إلى بلاد يرفرف عليها عملهم ويزيد ملوكهم تسامحًا مع ذمتهم ومجاوريهم وهمة فى تعهد صناعاتهم وزراعتهم وعمران مدنهم التى حصنوها بالعدل والإحسان.



الفصل الثامن

العرب والإسبان

قال بعضهم لو لم يقم كلوفيس[١] بحروب دينية فى القرن الخامس لتعذر على المسلمين فتح إسبانيا ونحن نقول لو لم يفتح العرب الأندلس ويحمل إليهم عبد الرحمن الأموى مدينة قومه لتأخرت المدينة قرونًا عن الظهور فى ربوع أوروبا[٢] وقد أجمع المنصفون أن العرب لو لم ينجلوا عن الأندلس لكانت حال إسبانيا اليوم أرقى مما هى بمراحل ولا يؤمل لهذا الشعب وقد رأى صنوف العذاب من رجال الدين ورجال الحكم وأكلت نوابغه الحروب والاستعمار وديوان التفتيش الدينى أن تنشأ له نهضة كنهضة إيطاليا فى القرن الخامس عشر تنتقل منها إلى أوبا بأسرها.

وأن المرء إذا نزل إسبانيا اليوم ليشعر ولا سيما فى القسم الجنوبى منها له أنه فى بلاد عربية لو كان لسان القوم العربية. ويرى كثيرًا من السحنات أسبه

---

(١) كلوفيس (٤٦ - ٥١١) ملك الفرنجة (فرنسا) سنة ٤٨١ افتتح صقع باريز واستخلصه من أيدى الرومان سنة ٤٨٦ واستولى على ولاية الأكيتين من الفيزيغوت وغلب الألمان سنة ٤٩٦ والبورغوند سنة ٥٠٠ ودان مع أمته بالنصرانية سنة ٤٩٦ فكان أول من وحد بلاد غاليا (فرنسا) فى دبنها وسياستها.

(٢) من تاريخ الكنيسة تعريب هنرى جسب قال موسهليم الجرمانى: حق علينا أن نقول أن العرب ولا سيما عرب إسبانيا هم أصل وينبوع كل معرفة فى الطب والفلسفة والفلك والتعاليم التى بزغت فى أوروبا منذ القرن العاشر فصاعدًا.

بوجوه العرب منهـا بوجوه الأمم اللاتينية وبعض عاداتهم وطبـائعهم تنم عن روح عربيـة على سعى رجال الدين فى نزعهـا من بينهم منذ استعـاد الإسبان أرض الأندلس أواخر المائة التاسعة. لا جـرم أن أربعة قرون ونصفًا لم تكتف لأن تنزع من القوم ما تأصل فيهم فى ثمانية قرون وتمثلوه وتمثل بهم من مدنية العرب.

ذكر بعضهم أن فى الأندلس أهم آثار إسبانيا والأندلس من إسبانيا بمثابة إقليم البروفانس فى جنوبى فـرنسا وصقلية من إيطاليا وقـد جمعت الأندلس جميع المحـاسن والغرائب المبعثرة فى طول إسـبانيا وعرضهـا ولهجة الأندلس مائلة إلى العـربية كثيـرًا والاحتفالات والأخلاق قـد حفظت فيهـا الأساليب العربية.

نعم لا تزال تسـمع فى اللغة الإسـبانية كـثيـرًا من الألفاظ العـربية من أسماء البـلاد والأنهار والنواحى وبعض المرافق والمصطلحات وكل كلـمة تبدأ عندهم بأل التعـريف العربية هى عربيـة لا محالة ومن الأسماء مـا يبدأ ببنى ومنها ما يبـدأ بوادى فدخلت مئات من الألفاظ فى اللغة الإسـبانية وتأصلت فيـها كما دخلت البـرتغالية والإيطاليـة والفرنسية لغـات الأمم اللاتينية وهى ظاهرة كل الظهور فى اللغة الإسبانية وأقل منها فى اللغة البرتغالية وإلى اليوم تسمع بوادى الرامة ووادى الحجارة ووادى القنال ووادى البياضة ووادى الكبير وقلعة وقليـعة والرملة وقصبـة وقصر ومدينة وجـنة والمدور والبطاقة والقنديل والأنبيق والساقية والمنارة والربض والمسـجد والربع والشمعة والفندق والمحراب ومئات غيرها أفرادها علماء منهم بالتأليف.

أخذ الإسـبان عن العـرب أشياء ظنوها بعـد من مصطلحـات أجدادهم

وبنات أفكارهم وتأصلت فيهم من حيث يشعـرون ولا يشعرون. حدثنى الثقة أن أحد علماء المشرقيات من الإسبان وهو موسيقار يحسن العربية ويطبع الآن كتابًا يثبت فيـه بالأدلة التاريخية أن الموسيقى الكنائيسـة فى القرن الثالث عشر كانت مقتبسة من الموسيقى العربية ويخيل لمن يسمع الموسيقى الإسبانية والغناء الإسبانى ويرى الرقص الإسبانى أنها عـربية إلا قليلا بحيث ساغ لنا أن نقول إذا كان الروسى شرقيًا «تأوروب» واستغرب فالإسبانى عربى شرقى «تأوروب» واستغرب أيضًا.

ولا تزال إلى اليـوم. ترى كثيـرًا من النابهين من الإسـبانيـة يدعون أن أصلهم عربى يذكرون ذلك مفاخرين ويعدون ذلك من إمارات الشف والتغنى يذكرنى القديم الجميل. وقد رأينا الإسبانيين فى القرن التاسع عشر والعشرون نهضوا لا بأس بها للبـحث عن ماضيهم أو ماضى إسبانيا الإسـلامية وصرفوا فى ذلك وقتًا ومالا وتوفر على هذا العمـل طائفة منهم حرصوا أجمل حرص على الأخـذ من المدنية العـربية ليكفـروا عن سيـئات أجدادهم الـذين عوزوا بعملهم مصانع العرب وخططهم وحرقوا ومزقوا أسفارهم وآثارهم.

أذكر مثـالين من هذه النهضة يعـدان فى الباب الأول من أبواب تسلسل الفكر الراقى والدؤوب المحمود وهو مما يقل الآن فينا بعد أن أورثنا الإسبانيين أخلاقنا وطباعنا وإليكم البيان: قال لى الأسـتاذ الأب آسين بلاسيوس مدرس العربية فى جـامعة مجـريط وأحد أعضاء المجمع العلمى العـربى بدمشق وأنا أنظر خزانى كـتبه: جمع أكـثر هذه الخزانة أسـتاذى ريبرا وفيـها كتب كثـيرة مطبوعة وأهمها الجزازات «الفيش» التى رتبهـا طول حياته وفيها أسماء ثلاثين ألف عالم من علماء الأندلس وقد استنسخـها البرنس ليونى كايتانى الإيطالى

صاحب تاريخ الإسلام الكبير ليطبعـه فى جملة ما يطبع من آثار العرب. قال لما كنت فى بلدى وجئت مجريط لا عمل مع أسـتاذى أحمل ما تيسر لطالب جمعه من الكتب ضممت مجمـوعتى إلى مجموعته فى هذه الدار ولما حانت وفاته وكان عزبًا أوصى لى بكتبه على أن أشتـغل بها مدة حياتى وأفتح أبوابها لطلاب الاستشراق ثم أتركها كما تركـها هو لمن أرى فيه الكفاءة للعمل بعدى أو أجعلها فى إحدى دور الكتب العامة.

هذا هو المثال الأول والمثال الثانى مجـموعة السنيور أوسما Osma ناظر مالية إسبانيـا سابقًا وهى من الفسيفساء والقيسـانى الإسبانى والسلاح والرخام والسـجاد والأدوات والأوانى الفـضـية والزمـرد والأوان الخزفـيـة والبللورية والألبسة والنقوش والتصاوير والأعمال الخشبية والنقود العربية والإسبانية ذهبية وفضية ونحـاسية من صنع عرب الأندلس وصنع إسبانيا المسيـحية فى القرون الوسطى هذا عدا وثائق تاريخية وسجـلات من القرن السادس عشر من الآثار النصرانية وقد بدأ بجمع هذه المجموعـة عم السنيور أوسما والد زوجته وأحد أشراف إسبانيا منذ زهاء خمسـين سنة ودامت ابنته بعده وزجها يطرسان على آثار هذه المغـالى بالآثار الإسلامـية والنصـرانية. ولما جـاءتها الوفـاة أوصت بالقسم الذى جمعته فى حياتها والذى ورثـته عن أبيها لزوجها السنيور أوسما على أن تدعى المجمـوعة كلها باسم لقب والدها فـسميت مـجموعة مـجمع بلنسيـة للدوق خوان Justituto de Valencia de Don وصحت عـزيمة الوزير الإسبانى أن يضيف إلى المجموعة ما جمعه فى حياته ويجعله فى دارين بناهما فى أهم أحياء Juan مجريط الحديـثة فبنى الدار الأولى على الطراز الأندلسى والثانيـة على الطراز المسيـحى فى القرون الوسطى وكـلا الدارين متلاصـقان

جعلت كل مجموعة فى الدار التى تناسبها فأصبحت الداران متحفًا مرتبًا ترتيبًا علميًا راقيًا لمعرفة صاحبها الآن وإشارة من يختلف إلى داره من غلاة العاديات والآثار وحملة العلوم والفنون الذين يضمهم فى ناديه مرة فى الأسبوع يتفاضون الصناعات والنفائس. وقد وقف الوزير المولع بالآثار مؤخرًا مجموعته البديعة وأقام عليها خمسة من الأمناء منهم الأستاذ آسين المشار إليه ووقف عليها مبلغًا من المال لا يقل عن خمسة ملاين بستاس أو نحو عشرة ملايين فرنك بحسابنا اليوم وأعطاها خزانة كتبه البالغة ألقى مجلد على أن تبقى مجموعته ويزاد فيها ليدرس تاريخ الصنائع والفنون فى إسبانيا وقد توخى فى وصيته تنشيط الطلبة الوطنيين والأجانب على درس هذا الفرع من العلم فى إسبانيا وخص المولعين بهذا الشأن من الإنجليز ممن يصرفون مدة فى مجريط لهذا الغرض يدرسون مجموعته فيعاونهم معاونة مالية وخص من الإنكليز طلبة جامعة أكسفورد لأنه درس فيها فى صباه فأراد أن يعنى عناية خاصة بمن يتخرجون فيها.

هذان مثالان من عناية الخلف بآثار السلف ولو قام فى أذهان خاصة الإسبان مثل هذه الأفكار منذ جلاء العرب عن بلادهم لكانت اليوم مجاميعهم ومجموعاتهم أعظم ثروة خلفتها أمة مغلوبة لأمة غالبة ولعدت فى إسبانيا من أكبر موجبات فخرها كما تربح ولايات الأندلس اليوم من بقايا الآثار العربية التى يقصدها السياح من عامة أقطار الأرض.

❊ ❊ ❊

الفصل التاسع

العلم في الأندلس

قال لنا الدكـتور روزيه[١] رئيس جامـعة لوزان فى سويسرا سـابقًا أننى طوفت بلاد الأندلس ورأيت آثارها الباقـية من عهد العرب فأعـجبت بها كل الإعجاب ومما شهدته السدود القـائمة إلى اليوم فى ولاية بلنسية فإن أهل هذه الولاية من الإسبان اليوم يعيشون بفـضل هندسة مهندسى العرب لهذه السدود ولم يتـيسـر لمدينة القرن العـشرين أن تقـيم أرقى مما أنشـأه أبناء جنسكم فى القـرون الوسطى ولحسن الحظ لم يقـو التـعصب الدينى الذى دك كـثيـرًا من المعالم فى أرض أندلس علـى نسف هذه السكور على وادى الأحمر وغـيرها وإلا هلك أهل ذاك الإقليم عـطشًا ومـن الأسف أن مديـنة هذه بعض آثارها تذهب ولا من يبكيـها فـقبح من قضـوا عليهـا وأوصلوكم إلى ما علـيه من الانحطاط.

جملة لا يزال صداها يتردد فى أذننا منذ فاوهنا بها العالم السويسرى من بضع سنين وقد ذكرنا بها عهد الأندلس وعـهد عمرانه الزاهر وارتقائه الباهر. ذكرنا بالأمس أمة عربية أوروبية تشبه الغـربيين فى تصوراتها وآدابها وعلومها ولكنها شرقـية عربية مسلمة بإقامـة شعائر دينها وأخلاقهـا وعاداتها وقلنا أننا معاشـر العرب على كثرة عنايتنا أيام عـزنا بتقييد علوم ديننـا ولساننا وما إلى

---

(١) من محـاضرة «العـرب فى الأندلس» ألقيناها فى النادى العـربى بدمشق مـساء ٢ حزيران ١٩١٩.

ذلك لم نكن فى العناية بالعلوم التى هى اليـوم العلوم الحقيـقية كالرياضـيات والطبيعيات والكيميـاء والفلسفة والطب والفلك دون ذلك بكثير وإلا لما قامت مصانع الأندلس على النظام الذى يرى الناس أثره ويعـجبون به على اختلاف العصور ولما أعجب الأسـتاذ روزيه اليوم بهندسة العرب لسدود بلنسيـة الباقية لعهدنا بعد انقراض دولة العرب من تلك البلاد زهاء أربعة قرون.

ولقد حـدث الثقات أن الغربيـين من المجاورين للأندلس كالفـرنجة أى الفرنسيين والألمان وسكان بررومية أى الـطليان وكانوا مثل الإفرنج مدينة لذاك العهد لم يكونوا إلا دون جـيرانهم عرب الأندلس فى العلم وأعمـال العمران والصناعـات والزراعة ولولا علمـاء الكيـميـاء والهندسة والنبـات والطب من العرب لتأخرت المدنية فى أوروب زمنًا طويلا.

ولذلك كانت الأ،دلس فى عـهد العرب كعـبة العلم بحج إليهـا أذكياء الطلاب من فرنسا وإيطاليـا وغيرهما كما يـحج اليوم طلاب العلم إلى كليات فرنسا وألمانيا وإنكلترا والبلجيك وسويسرا وهولاندا.

أخذ عشرات من الإفرنج العلوم عن عرب الأندلس وترجموها باللاتينية ومنها مـا فقد أصله العربى اليـوم وبقيت ترجمتـه فقط[١]. وأن العلوم التى تلقاها جربرت الذى أصبح بابا رومية باسم سلفستر الثانى عن عرب الأندلس كانت موضع إعجاب معاصريه حتى اتهموه بالسحر.

كانت الأندلس قبل تـغلب بنى أمية عليها سنة ٩٢ هـ خـالية من العلم

---

(١) راجع ما كتبه هوار فى تاريخ العـرب فى سماء نقله الإفرنج فى العلوم عند العرب وما كتبه نالينو فى كتابه علم الفلك عند العرب المطبوع فى رومية.

لم يشتهر عند أهلها أحد بالاعتناء به إلا أنه يوجد فيها طلسمات قديمة فى مواضع مختلفة وقع الإجماع على أنها من عمل ملوك رومية إذ كانت الأندلس منتظمة بمملكتهم. ولما استقر الأمر لبنى أمية عنى جماعة من أهلها بطلب الفلسفة ونالوا أجزاء كثيرة منها وفى أيام الأمير الخامس من بنى أمية وهو محمد بن عبد الرحمن أى فى أواسط المائة الثالثة تحرك أفراد من الناس إلى طلب العلوم أى غير علوم الشريعة واللغة ولم يزالوا يظهرون ظهورًا غير شائع إلى قريب وسط المائة الرابعة.

ذلك لأن رجال الدين كانوا أصاب صولة وتأثير فى النفوس ومن عادة من جهل شيئًا أن يعاديه فتوهم بعضهم أن هذه العلوم الدنيوية مدرجة إلى الزهد فى العلوم الأخروية فكانوا يشددون النكير على من يتعاطونها ولكن أكثر ملوك بنى أمية ومن بعدهم من ملوك الأندلس كانوا عل من أن يطاوعوهم فى النيل ممن يريدون الإيقاع بهم لمخالفتهم لهم فى العلوم التى يمتون بها.

اشتهر بين وسطى المائة الثالثة والرابعة من العلماء أبو عبيدة مسلم البلنسى المعروف بصاحب القبلة كان عالمًا بحركات الكواكب وأحكامها وصاحب فقه وحديث ومنهم يحيى بن يحيى المعروف بابن السمينة من أهل قرطبة كان بصيرًا بحساب النجوم والطب وغير ذلك متصرفًا فى العلوم متفننًا فى ضروب المعارف وكان معتزلى المذهب توفى سنة ٣١٥ ومنهم محمد بن إسماعيل المعروف بالحكيم وكان عالمًا بالحساب والمنطق نحويًا لغويًا توفى سنة ٣٣١.

انتدب الأمير الحكم فى أيام أبيه عبد الرحمن صدر المائة الرابعة إلى

العناية بالعلوم فـاستجلب من بغـداد ومصر وغيـرهما من ديار الشرق عـيون التواليف الجليلة فى العلوم القديمة والحديثة وجمع منا فى بقية أيام أبيه ثم فى مدة ملكه مـا كاد يضاهى مـا جمعـته ملوك بنى العبـاس فى الأزمان الطويلة فكثر تحرك الناس فى أيامه إلى قراءة كتب الأوائل تعلم مذاهبهم.

وقام بـعده ابنه هشـام فعـمد إلى خـزائن أبيه الحكم الجـامعـة للكتب المذكورة وغيرها وأراد اسـتخراج ما فيها من ضروب التـآليف بمحضر خواص من أهل العلم بالدين وأمرهم بإخراج ما فى جملتـها من كتب العلوم القديمة المؤلفة فى علوم المنطق وعلم النجوم وغير ذلك من علوم الأوائل حاشا الطب والحساب وأمر بإحراق ما عدا ذلك وإفسادها فأحرق بعضها وطرح بعضها فى آبار القصر وهيل علـيها التراب والحجـارة وغيرت بضروب من التغـايير فعل ذلك تحببًا إلـى عوام الأندلس وتقبيحًا لمذهب الخليـفة الحكم عندهم إذ كانت تلك العلوم مـهجورة عند أسـلافهم مذمـومة بالسنة رؤسـائهم وكان كل من قرأها متـهمًا عندهم بالخروج عن الملة ومظنونًا به الإلحاد فى الشـريعة فسكن أكثر من كـان تحرك للحكمة عند ذلك واضـمحلت نفوسهم وتسـتروا بما كان عندهم من تلك الـعلوم ولم يزل أولو النبـاهة من ذلك الوقت يكـتمـون مـا يعرفونه مـنها ويظهرون ما تحوز لـهم فيه من الحساب والفـرائض والطب وما أشبه ذلك إلى أن انقرضت دولة بنى أمية من الأندلس.

قال هذا القـاضى صاعد وتؤيده رواية ابن سـعيد فى المغـرب قال وكل العلوم لها عندهم حظ واعتناء إلا الفلسفة والتنجيم فإن لهما حظًا عظيمًا عند خواصهم ولا يتظاهـر بها خوف العامة فـإنه كلما قيل فلان يقـرأ الفلسفة أو يشتغل بالتنجـيم أطلقت عليه العامة اسم زنديق وقيدت عليـه أنفاسه فإن زل

فى شبهة رجموه بالحجـارة أو حرقوه قبل أن يصل أمره للسلطان تقربًا لقلوب العامـة وكثيـرًا ما يأمر ملوكـهم بإحراق كتب هذا الشـأن إذا وجدت وبذلك تقرب المنصور بن أبى عـامر لقلوبهم أول نهوضه وإن كان خال مـن الاشتغال بذلك فى الباطن على ما ذكره الحجارى.

قال ابن حزم: وأما كتب الفلسفة فأمامها فى عصرنا أبو الوليد بن رشد القرطبى وله فيها تصانيف حجدها لما رأى من انحراف منصور بنى عبد المؤمن عن هذا العلم وسجنه بسببها وكـذلك ابن حبيب الذى قتله المأمون بن منصور المذكور على هذا العلم بإشبيلية وهو علم ممقوت بالأندلس لا يستطيع صاحبه إظهاره وكان مطرف الإشبيلى قد اشتغل بالتصنيف فى علم النجوم إلا أن أهل بلده كانوا ينسبـونه إلى الزندقة بسبب اعتكافه عـلى هذا الشأن فكان لا يظهر شيئًا مما يصنف.

وقـال أيضًا من رسـالة أهل قـرطبة أنهم من التـمكن فى علوم القـرآن والروايات فقط وكثيـر من الفقه والبصر بالنحو والشعـر واللغة والخبر والطب والحـساب والنجـوم بمكان رحب الفناء واسع الـعطن متنائـى الأقطار فسـيح المجال. وقد ذكـر ابن حزم فى رسالته هـذه من نبغ فى الأندلس من المؤلفين فى علوم الدين والنسب والتاريخ والطب وعد بعض كتبـهم قال وأما الفلسفة فإنى رأيت فيها رسائل مـجموعة وعيونًا مؤلفة لسعيـد بن فتحون السرقسطى دالة على تمكنه من هذه الصناعة وأمـا رسائل أستاذنا أبى عبد الله مـحمد بن الحسن المذحجى فى ذلك فمشهورة متـداولة وتامة الحسن فائقة الجودة عظيمة المنفعـة. وقال لم يؤلف فى الأزياج مثل مـسلمة وزيج ابن السـمح وهما من أهل بلادنا وكذلك أحمد بن نصر.

وقال آخر وأمـا كتب علم الموسيقى فكتاب أبى بـكر بن باجة الغرناطى من ذلك فـيه كـفاية وهو فى الغـرب بمنزلة أبى نصر الفـارابى بالشرق وإلـيه تنسب الألحان المطربـة بالأندلس التى عليها الاعـتماد وليـحيى الخدج كـتاب الأغانى الأندلسية على منزع الأغـانى لأبى الفرج وهو ممن أدرك المائة السابعة قال صـاعد ولما افـترق الملك فى صـدر المائة الخامـسة من الهجـرة بين ملوك الطوائف واقتعد كل منهم قاعدة من أمهات البلاد فاشتغل بهم ملوك الحاضرة العظمى قرطبة من امتحان الناس واضطرت الفتنة إلى بيع ما كان بقصر قرطبة من ذخائر ملوك الجماعة من الكتب وسـائر المتاع فبيع ذلك بأوكس ثمن وأتفه قيمة انتشرت تلك الكتب بأقطار الأندلس ووجد فى خلالها أعلاق من العلوم القديمة كـانت افتلتت من أيدى الممتحنين بحـركة الحكم أيام المنصور بن أبى عامـر وأظهر أيضًا من كان عنده من الرعـبة شىء ما كـان لديه منها فلم تزل الرغبة ترتفع من حين ذلك فى طلب العلم القديم شيئًا فشيئًا ثم أبيحت تلك العلوم إلى أن زهد الملوك فـيها وفى غـيرها فقل طلاب العلم وصـاروا أفرادًا بالأندلس.

فمن أعـلام هذه العلوم على ذاك العهـد أبو غالب بن عبـادة الفرائضى كان مـشهورًا بعلم العدد وأبو أيوب عـبد الغافـر بن محمد أحـد المهرة بعلم الهندسة. وعـبد الله بن محمد المعـروف بالسرى كان عالمًا بالعـدد والهندسة وكان ينسب إلـيه العلم بصناعة الكـيميـاء ومنهم أبو بكر بن أبى عيـسى كان مقدمًا فى العدد والهندسة والنجوم وسائر العلوم الرياضية فكان يجلس لتعليم ذلك العلم فى أيام الحكم. وعـبـد الرحمن بن إسـمـاعيل بن زيد المعـروف بالإقليدى كان متقدمًا فى علم الهندسة مـعتنيًا بصناعة المنطق وأحمد بن حماد

القرطبى (٣٣١) عام بالحساب والهندسة وأبو القاسم أحمد بن محمد العدوى كان معلمًا يعلم العدد والهندسة نافذًا فيها وأبو عثمان سعيد بن فتحون بن مكرم المعروف بالخمار السرقسطى كان متحققًا إمامًا فى علم النحو وله تآليف فى الموسيقى ورسائل فى الفلسفة. وأبو القاسم مسلمة بن أحمد المعروف بالمرحيط كان إمام الرياضيين فى الأندلس فى وقته وأعلم ممن كان قبله بعلم الأفلاك وكانت له عناية بأرصاد الكواكب وله كتاب حسن فى تمام علم العدد وهو المعنى المعروف بالمعاملات وكتاب اختصر فيه تعديل الكواكب من زيج البتانى وعنى بزيج محمد بن موسى الخوارزمى وصرف تاريخه الفارسى إلى التاريخ العربى ووضع أوساط الكواكب لأول تاريخ الهجرة وزاد فيه جداول حسنة توفى فى سنة ٣٩٨ وقد أنجب تلاميذ جلة ولم ينجب عالم بالأندلس مثلهم فمن أشهرهم ابن السمح وابن الصفار والزهراوى والكرمانى وابن خلدون.

فأما ابن السمح القاسم أصبغ بن محمد بن السمح المهندس فكان متحققًا بعلم العدد والهندسة متقدمًا فى علم هيئة الأفلاك وحركات النجوم وكانت له مع ذلك عناية بالطب وله تواليف حسنة فى الهندسة وعمل الاسطرلاب والأزياج ومنها زيجه الذى ألفه على أحد مذاهب الهند المعروف بالسند هند توفى سنة ٤٢٦ وأما ابن الصفار فهو أبو القاسم أحمد بن عبد الله بن عمر كان متحققًا أيضًا بعلم العدد والهندسة والنجوم وقعد فى قرطبة لتعليم ذلك وكان له أخ يسمى محمدًا مشهور بعمل الاسطرلاب لم يكن بالأندلس قبله أجمل صنعًا لها منه.

وأما الزهراوى فهو ابن الحسن على بن سليمان كان عالمًا بالعدد

والهندسة معتنيًا بعلم الطب. وأما الكرمانى فهو أبو الحكم عمرو بن عبد الرحمن من أهل قرطبة أحد الراسخين فى علم العدد والهندسة رحل إلى الشرق وانتهى إلى حران من بلاد الجزيرة وعنى هناك بعلم الهندسة والطب ثم رجع إلى بلاد الأندلس وجلب معه الرسائل المعروفة برسائل إخوان الصفا ولم يدخلها أحد من أهل الأندلس قبله ومحله من العلوم النظرية المحل الذى لا يجارى فيه توفى بسرقسطة سنة ٤٥ وأما ابن خلدون (هو غير عبد الرحمن ابن خلدون المؤرخ) فهو أبو مسلم عمرو بن أحمد بن خلدون الحضرمى من أشراف أهل إشبيلية فى علوم الفلسفة مشهور بعلم الهندسة والنجوم والطب مشبهًا بالفلاسفة فى إصلاح أخلاقه وتعديل سيرته وتقويم سياسته توفى سنة ٤٤٩.

ومن مشاهير تلاميذ أبى القاسم أحمد بن عبد الله الصفار ابن برغوث والواسطى وابن شهر والقرشى والأمطش المروانى وابن المطار ابن برغوث فهو محمد بن عمر بن محمد المعروف بابن برغوث كان متحققًا بالعلوم الرياضية مختصًا منها بإيثار علم الأفلاك وهيئاتها وحركات الكواكب. وإرصادها وكان له مع ذلك تحقق بعلم النحو ومعرفة القرآن والفقه والوثائق وإشراف حسن على سائر العلوم توفى سنة ٤٤٤ وأما الواسطى فهو الإصبغ عيسى بن أحمد أحد المتمكنين من علم العدد والهندسة والفرائض وقعد بقرطبة لتعليم ذلك وله أيضًا بصر بحمل من علم هيئة الأفلاك وحركات النجوم وأما ابن شهر فهو أبو الحسن مختار بن شهر الرعينى كان بصيرًا بالهندسة فى النجوم متقدمًا فى اللغة والنحو والحديث والفقه شاعرًا متكلمًا ذا دهاء ومعرفة بالسير والتواريخ وأما ابن العطار فهو محمد بن خيرة العطار فكان من تلاميذ ابن

الصفار متقنًا لعلم العدد والهندسة والفرائض وله بصر بصناعة النجوم وعناية بعلم حركاتها.

ومن مشاهير تلاميذ ابن السمح أبو مروان سليمان بن محمد بن عيسى بن الناشى وهو بصير بالعدد والهندسة معتن بصناعة الطب وأحكام النجوم وأبو جعفر أحمد بن عبد الله المعروف بابن الصفار المتطبب ومن نظراء هذه الطبقة عبد الله بن أحمد السرقسطى كان نافذًا فى علم العدد والهندسة والنجوم وقعد لتعليم ذلك فى بلده توفى سنة ٤٤٨ ومنهم أبو إسحق إبراهيم بن أحمد بن إبراهيم الإشبيلى كان بصيرًا بعلوم البرهان واللسان والمساءلة متفننًا فى ضروب المعارف صنعًا لطيف اليد توفى سنة ٤٢٠.

ومن مشاهير أصحاب ابن برغوث ابن الليث وابن الجلاب وابن حى فأما ابن الليث فهو محمد بن أحمد بن الليث كان متحققًا بعلم العدد والهندسة معتنيًا بعلم حركات الكواكب وإرصادها وكان مع هذا بصيرًا بالنجوم واللغة والفقه توفى سنة ٤٠٥ وأما ابن حى فهو الحسن بن محمد التجيبى من أهل قرطبة كان بصيرًا بالهندسة والنجوم كلفًا بصناعة التعديل وله فيها مختصر على مذهب السند هند وخرج من الأندلس سنة ٤٤٢ ولحق بمصر ثم رحل إلى اليمن واتصل بأميرها المسيحى وكان له ملكه إذ ذاك يشتمل على بعض إفريقية وجميع مصر والشام وجزيرة العرب والحجاز وتهامة ونجد واليمن حظى عنده وتوفى سنة ٤٥٦ وأما ابن الجلاب فهو الحسن بن عبد الرحمن المعروف بابن الجلاب أحد المتحققين بعلم الهندسة وهيئة الأفلاك وحركات النجوم وله مع ذلك عناية بالمنطق والعلم الطبيعى.

ومنهم أبو الوليد هشام بن أحمد بن هشام بن خالد الكنانى المعروف

بابن الوقشى من أهل طليطلة أحـد المتفننين فى العلوم المتوسـعين فى ضروب المعارف من أهل الفكر الصيح والنظر الناقد والتحقيق بصناعة الهندسة والمنطق والرسوخ فى علم النحو واللغة والشـعر والخطابة والأحكام لعلم الفقه والأثر والكلام وهو مع ذلك شاعر بليغ ليس يفضله عالم بالأنساب والأخبار والسير مشرف على حمل سائر العلوم ومن نظراء هؤلاء أبو جعـفر أحمد بن خميس بن عامر بن منيح من أهل طليطلة أحد المعنيين بعلم الهندسة والنجوم والطب وهو من لدات القـاضى أبى الوليـد هشام بن أحـمـد بن هشام وأبى إسـحق إبراهيم بن لب التجيـبى المعروف بالقويدس قعد للتـعليم بذلك زمنًا وكان له بصر بعلم هيـئة الأفلاك وحركـات النجوم ونفوذ فى العـربية توفى سنة ٤٥٤ ومنهم محمد بن عبد الله بن مرشـد مولى ابن طلمس الوزير كان كاتبًا كامل الصناعة يجمع إلى ذلك النبوغ فى علوم كثيرة من الحساب والتنجيم والهندسة توفى سنة ٤٤٨ .

وكـان فى القـرن الخامـس للهجـرة أفـراد من الأحـداث فى الأندلس مشتـغلون بعلم الفلسفة ذوو أفـهام صحيـحة وهمم رفيعـة فمنهم من سكان طليطلة وجهاتها أبو الحسن على بن خلف بن أحـمر وأبو مروان عبد الله بن خلف الاستجى وأبو جعـفر أحمد بن يوسف التهلاكى وعـيسى بن أحمد بن العالم وإبراهيم بن سعيد السـهيلى الاصطرلابى. ومن أهل سرقسطة الحاجب أبو عامـر بن الأميـر المقتدر باللـه وأبو جعفـر أحمد بـن جوشن. ومن أهل بلنسية أبو زيد عبد الرحمن بن سيد.

وأبرع هؤلاء فى الهندسة على بن أحمر الصيدلانى وأبو جعفر أحمد بن جوشن وأعلمهم بحركات النجوم وهيـئة الأفلاك أبو إسحق إبراهيم بن يحيى

النقاش المعـروف بولد الزرقيـال - والزرقيال نسـبة لآلة سمـوها الزرقلة وهى صحـيفة لرصـد لكواكب - فإنه أبصـر أهل القرن الخامـس بإرصاد الكواكب وهيئـة الأفلاك وحسـاب حركاتهـا وأعلمهم بعلم الأزياج واسـتنباط الآلات النجومية وأحـمد بن يوسف يعرف بابن كماد (حمـاد؟) كان من أهل المعرفة بالعدد وصناعة النجـامة وبنى أزياجه ومنها القبـس والمستنبط على إرصاد أبى إسحق الطليطلى المعروف بالـزرقالة وأما أبو عامر بن الأميـر بن هود فهو مع مشاركـته لهؤلاء فى العلم الرياضى منفـرد دونهم بعلم المنطق والعناية بالعلم الطبيعى والعلم الإلهى.

وكان عبـد الرحمن بن إسماعيل بن بدر المعـروف بالإقليدس الأندلسى متقدمًا فى علم الهندسة معتنيًـا بصناعة المنطق. وموسى بن ميمون الإسرائيلى الأندلسى قرأ علم الأوائل وأحكم الرياضـيات وشد أشياء من المـنطقيات وأبو بكر بن الصانع المعروف بابن باجة عالمًا بعلوم الأوائل لم يبلغ أحد درجته من أهل عصره فى مصره وله تصانيف فى الرياضيات والمنطق والهندسة أربى فيها على المتـقدمين قـال القفطى ألا إنـه يتمسـك بالسياسـة المدنية وينـحرف عن الأوامر الشرعيـة استوزره أبو بكر يحيى بن تاشفين مـدة عشرينٍ سنة وكانت وفاته فى سنة ٥٣٣.

وممن اعتنى بصناعة المنطق خاصة من سائر الفلـسفة أبو محمد بن حزم القرشى وكان أبوه أحد العظماء من وزراء المنصـور محمد بن أبى عامر ووزر لابنه المظفر وكان ابنه أبو مـحمد وزيرًا أيضًا لعبد الرحـمن المستظهر بالله ثم نبذ هـذه الطريقة وأقـبل على قراءة العلوم وتقـييـد الآثار والسنن وعنى بعلم المنطق. ومنهم أبو الحسن على بن إسماعيل بن سيده الأعمى وكان أبوه أيضًا

أعمى عنى بعلوم المنطق عناية طويلة وألف فيها تأليفًا كبيرًا ذهب فيه إلى مذهب متى بن يونس وهو بعد هذا أعلم أهل الأندلس قاطبة بالنحو واللغة والأشعار وله فى اللة تواليف جليلة منها المحكم والمحيط الأعظم والمخصص وشرح إصلاح المنطق وشرح كتاب الحماسة ٤٥٨.

ومن أعاجيب النوابغ الأندلسيين الذين فقدوا بصرهم ولم يفقدوا بصيرتهم ابن الحناط الكفيف الذى قال فيه ابن حيان أنه كان أوسع الناس علمًا بعلوم الجاهلية والإسلام بصيرًا بالآثار العلوية عالمًا بالأفلاك والهيئة حاذقًا بالطب والفلسفة ماهرًا فى العربية واللغة والآداب الإسلامية وسائر التعاليم الأوئلية والداعشنى ضعيف البصر متوقد الخاطر فقرأ كثيرًا فى حال عشاه ثم طفئ نور عينيه بالكلية فازداد براعة ونظر فى الطب بعد ذلك فأنجح علاجًا وكان ابنه يصف له مياه الناس المستفتين عنده فيهدى منها إلى ما لا يهتدى البصر ولا يخطئ الصواب فى فتواه ببراعة الاستنباط وتطيب عنده الأعيان والملوك والخاصة فاعترف له بمنافع جسيمة.

وأما العلم الطبيعى والعلم الإلهى فلم يعن أحد من أهل الأندلس بهما كبير عناية ومن المشتغلين بهما ابن النباش التيجان وأبو عامر بن الأمير بن هود وأبو الفضل بن حسداى الإسرائيلى. وأما صناعة الطب فلم يكن بالأندلس من استوعبها ولا لحق بأحد من المتقدمين فيها وأول من اشتهر منهم بالأندلس أحمد بن إياس من أهل قرطبة ومحمد بن عبد الله الأوسط ويعرف بالحرانى ومنهم يحيى بن إسحق أحد وزراء الناصر لدين الله وسعيد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد ربه مولى الأمير هشام الرضى بن عبد الرحمن الداخل وهو ابن أخى أحمد بن محمد بن عبد ربه الشاعر صاحب العقد وكان له بصر

بحركات النجوم ومهاب الرياح وتغـيير الأهوية. ومنهم عمر بن بريق وأصبغ ابن يحيى وأحـمد بن حكم بن حفـصون وكان هذا طبيـبًا نبيـلا ودقيق النظر بالمنطق مشرفًا على كثير من علوم الفلسـفة ومنهم محمد بن تمليخ وأبو محمد ابن الحسين المعـروف بابن الكنانى كان عالمًا بالطب حسن العـلاج ومنهم عبد الملك الثقفى كـان عالمًا بالطب والهندسة وكان الطب أغلب عليـه ومنهم عمر وأحمد ابنا يونس بن أحـمد الحرانى. ومنهم محمد بن عـبدون الجبلى وكان قبل أن يتطبب مؤدبًا فى الحساب والهندسـة ومنهم سلميان بن حسان المعروف بابن جلجل وعبـد الله بن إسحق المعروف بابن الشناعة المسلمـانى الإسرائيلى وأبو عبـد الله محـمد بن الحسـين المعروف بابن الكنانى المظفـر وكان بصـيرًا بالطب متـقدمًـا فيه ذا حظ من المنطق والـنجوم من علوم الفلسفـة ومنهم أبو العرب يوسف بن محمد أحد المتحققين بصناعة الطب توفى سنة ٤٣٠.

ومن أشهرهم أحمد بن إبراهيم الأنصـارى من أهل بلنسية كان من أهل العلم بالفرائض والحساب لا يجارى فى التعاليم قعد لتعليم الحساب والهندسة ٥٩٣ ومنهم أبو عثمان سعيـد بن البغونش عالم لعلم العدد والهندسة والطب ٤٤٤ ومنهم الوزير أبو المطوف عـبد الرحمن الـلخمى عن عناية بالغـة بقراءة كتب جـالينوس وأرسطاليس وغيرهمـا من الفلاسفـة وتمهر فى علوم الأدوية المفردة حتى ضبط منها ما لم يضبطه أحد فى عصره وألف فيها كتابًا جليلا لا نظير له جمع فيه ما تضمنه كـتاب ديسقوريدوس وكتاب جالينوس فى الأدوية المفردة وكـان له فى الطب منزع لطيف وذلك أنه لا يرى التـداوى بالأدوية ما أمكن التداوى بالأغذية أو مـا كان قريبًا منهـا فإذا دعت الضرورة إلى الأدوية فلا يرى التداوى بمركبها من وصل إلى التداوى بمفردها فإن اضطر إلى المركب لم يكثر التركيب بل اقتصر على أقل ما يمكن منه.

ومنهم أبو مروان بن زهر الإشبيلى وأبو محمد عبد الله بن محمد المعروف بابن الذهبى وأبو عبد الله محمد البجائى المعروف بابن النباش معتن بصناعة الطب ذو معرفة جيدة بالعلم الطبيعى ومشاركة فى الإلهى وتحقق بعلم الأخلاق والسياسة وبصر بصناعة المنطق. وممن عنى بطلب الفلسفة والهندسة والمنطق أبو الحسن عبد الرحمن بن خلف بن عساكر كان صنع اليدين متصرفًا فى ضروب من الأعمال اللطيفة والصناعات الدقيقة.

ولم تزل صناعة أحكام النجوم نافعة بالأندلس قديمًا وحديثًا فمن مشاهير المشتغلين بها أبو بكر يحيى بن أحمد المعروف بابن الخياط وأبو مروان الاستجبى أحد المتحققين بعلم الأحكام والمشرفين على كتب الأوائل والأواخر وله فى التسييرات ومطارح الشعاعات وتعليل بعض أصول الصناعة رسالة فاضلة لم يتقدمه أحد إليها. ومن المذكورين أبو الإصبع عثمان القرى من أهل قرطبة وكان علمه الذى ينسب إليه ويغلب عليه التنجيم ومنهم عبد الرحمن بن وافد اللخمى من أهل طليطلة رحل إلى قرطبة فلقى بها القاسم خلف بن عباس الزهراوى وأخذ عنه علم الطب وكان مع تقدمه فى ذلك فقيهًا عالمًا متفننًا وله فى الفلاحة مجموع مفيد وكان عارفًا بوجوهها وهو الذى تولى غرس جنة المأمون بن ذى النون الشهيرة بطليطلة توفى سنة ٥٦٧ وممن لم يشتهروا محمد بن عيسى بن ينق أبو عامر من أهل شاطبة لازم أبا العلاء بن زهر بإشبيلية وأخذ عنه علمه وبرع فى الطب والأدب وتوفى سنة ٥٤٧.

ومن الأطباء بالأندلس جواد الطبيب النصرانى كان فى أيام الأمير محمد ابن عبد الرحمن الأوسط وله اللعوق المنسوب إلى جواد وله دواء الراهب والشرابات والسفوفات. وكان خالد بن يزيد بن رومان النصرانى بقرطبة

صانعًا بيـده عالمًا بالأدوية الشجارية وابن ملوكة النصرانى كـان فى أيام الأمير عبـيد الله وأول دولة الأمـير عبـد الرحمن الناصر وكـان يصنع بيده ويفـصد العروق وكـان على بابه ثلاثون كرسـيًا لقعـود الناس وعمران بن أبى عـمرو وإسحق الطبيب المسيحى كان مقيمًـا بقرطبة وكان صانعًا بيده مجربًا يحكى له منافع وآثار عجيبة وتحنك فـاق به جميع أهل دهره ومنهم سليمان أبو بكر بن تاج كان فى دولة الناصـر وابن أم المؤمنين وأبو بكر أحمد بن جابـر وأبو عبد الملك الثقـفى كان طبيـبًا أديبًا بكتـاب إقليدس وبصناعة المسـاحة وهارون بن موسى الإشبيلى وعبد الرحمن بن إسحق بن الهيثم. والرميلى كان بألمرية فى أيام ابن معن المعروف بابن صمادح ويلقب بالمعتصم بالله.

وسخم بن الفـوال يهودى من سكان سرقسطة كـان متقدمًـا فى صناعة الطب متـصرفًـا فى علم المنطق وسائر علوم الفلسـفة ومـروان بن جناح كان يهوديًا وله عناية بصناعة المنطق وتوسع فى علم لسان العـرب واليهود ومعرفة جيدة بصناعـة الطب ومنهم إسحق بن قسطار وكان يهوديًا أيضًـا وكان بصيرًا بأصول الطب مشاركًا فى علم المنطق مشـرفًا على آراء الفلاسفة وله تقدم فى اللغة العبرانية وبراعة فى فقه اليهود وهو حبر من أحبارهم ومنهم حسداى بن إسحق وكـان من أحبار اليهـود متقدمًـا فى علم شريعتـهم وهو أول من فتح لأهل الأندلس منهم باب عـملهم من الفقه والتـاريخ وغير ذلك وكـانوا قبل يضطرون فى فقـه دينهم وشتى تاريخـهم ومواقيت أعـيادهم إلى يهـود بغداد فيـستجلبـون من عندهم حسـاب عدة من السنن يتعـرفون مـداخل تاريخهم ومبادئ سنيهم فلما اتـصل حسداى بالحكم ونال عنده نهاية الحظوة توصل به إلى استجلاب ما شاء من تآليف اليهـود بالمشرق فعلم حينئذ يهود الأندلس ما كانوا يجهلون واستغنوا عما يتجشمون الكلف فيه.

ومنهم الفضل حسداى من ساكنى مدينة سرقسطة ومن بيت شرف اليهود بالأندلس عنى بالعلوم على مراتبها وتناول المعارف من طرقها فأحكم علم لسان العرب ونال حظًا جزيلا من صناعة الشعر والبلاغة وبرع فى علم العدد والهندسة وعلم النجوم وفهم صناعة الموسيقى وحاول عملها وأتقن علم المنطق وتمرن بطرق البحث والنظر واشتغل أيضًا بالعلم الطبيعى وكان له نظر فى الطب ومنهم أبو جعفر بن أحمد بن حسداى كان آية فى الطب والمنطق ومنهم ابن سمحون أبو بكر حامد.

وكان أبو عبيد الله بن عبد العزيز البكرى من مرسية وأعيان أهل الأندلس وأكابرهم فاضلا فى معرفة الأدوية المفردة وكان أبو جعفر الغافقى والشريف محمد بن محمد الحسنى وخلف بن عباس الزهراوى وابن بكلارش من أكابر علماء الأندلس فى صناعة الطب وابن الصلت أمية بن عبد العزيز من بلد دانية من شرق الأندلس وهو من أكابر الفضلاء فى صناعة الطب وفى غيرها من العلوم وكان أوحد فى العلم الرياضى متقنًا لعلم الموسيقى وعمله جيد اللعب بالعود.

ومن أعظم فلاسفة الأندلس أبو بكر محمد بن يحيى الصائغ المعروف بابن باجة وكان فى العلوم الحكمية علامة وقته متميزًا فى العربية والأدب والطب متقنًا لصناعة الموسيقى جيد اللعب بالعود قالوا أنه لم يكن بعد أبى نصر الفارابى مثله فى الفنون التى تكلم عليها من تلك العلوم فإنه إذا قارنت أقاويله فيها بأقاويل ابن سينا والغزالى وهما اللذان فتح عليهم بعد أبى نصر بالمشرق فى فهم تلك العلوم ودونا فيها بأن لهذا الرجحان فى أقاويله وفى حسن فهمه لأقاويل أرسطو والثلاثة أئمة دون ريب ومن حكمائهم الإلهيين أو

المتصـوفين الشـيخ الأكبـر محيى الدين بن عـربى صاحب الفـتوحـات دفين دمشق.

ومنهم أبو العلاء بن زهر كان غاية فى علوم الأوائل والطب وأبو مروان ابن أبى العـلاء زهر وكان من كبـار الأطباء. والحـفيد أبو بكـر بن زهر كان متميزًا فى العلوم ولم يكن فى زمانه أعلم منه بصناعة الطب ومنهم أبو الحفيد محـمد بن أبى بكر بن زهر وأبو جـعفر بن هارون التـرجالى من أعـيان أهل إشبيليـة وكان محقـقًا للعلوم الحكمية مـتقنًا لها معـتنيًا بكتب أرسطوطاليس وغيره من الحكمـاء المتقدمين فاضلا فى صناعـة الطب عالمًا بصناعة الكحل. وأبو الحـجاج يوسف بن مـوراطير من شـرقى الأندلس ومـوراطير قـرية من بلنسية كان فـاضلا فى صناعة الطب فالأمور الشرعيـة أديبًا شاعرًا ومنهم ابن أخته أبو عبد الله بن يزيد وأبو مروان عبد الملك بن قبلال وأبو إسحق إبراهيم الدانى وكان أمين البـيمارستان وطبـيبه بالحضرة وكـذلك ولداه وأبو يحيى بن قاسم الإشـبيلى كان صـاحب خزانة الأشربة والمعـاجين التى يأخذها الخليـفة المنصور من عنده.

وأبو الحكم بن غلندو الطبيب وأبو جـعفر أحمد بن حـسان وأبو العلاء بن أبى جعفـر أحمد بن حسان وأبو محـمد الشذونى وله معرفـة جيدة بعلم الهيئة والحكمة والطب مشهـور بالعلم وأبو الحسين بن أسدون شهر بالمصدوم الطبيب وعـبد العزيز بن مـسلمة الباجـى وأبو جعفر بـن الغزال وأبو بكر بن القاضى أبى الحـسن الزهرى وابن الحلاء المرسى وأبو إسـحق بن طلموس من جزيرة شقر من أعمال بلنسية وأبو جعفر الذهبى وأبو العباس بن رومية النباتى العشاب وأبو العباس الكمـبنازى وابن الأصم وغيرهم من الأطباء الذين كانوا

يجمعون إلى الطب أدبًا وشعرًا وحديثًا وقرآنًا وفلسفة ومنطقًا أو نجومًا أو كيمياء.

هذه جملة إجمالية فى بعض رجال العلم غير الدينى فى الأندلس ذاك القطر الذى إليه تنسب نحو نصف المدنية العربية الذى نقل أهله المدنية القديمة إلى أهل المدنية الحديثة فكانوا خير صلة وعائد بين الرومان واليونان والفرس وبين الإنكليز والطليان والألمان والفرنسيين وقد تم ما تم من ذلك بفضل عقول خلفاء العرب وملوكهم هناك فقد كان أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن أحد ملوك الأندلس عالمًا مفننًا مكرمًا للعلماء والشعراء ولم يزل يبحث عن العلماء وخاصة أهل علم النظر إلى أن اجتمع له منهم ما لم يجتمع لملك قبله من ملوك المغرب وكان ممن صحبه من العلماء والمتفننين أبو بكر محمد بن طفيل أحد فلاسفة المسلمين وكان هذا متحققًا بجميع أجزاء الفلسفة يأخذ الجامكية مع عدة أصناف من الخدمة من الأطباء والمهندسين والكتاب والشعراء والرماة والأجناد إلى غير هؤلاء من الطوائف وكان يقول لو نفق عليهم علم الموسيقى لأنفقته عندهم ولم يزل أبو بكر يجلب إليه العلماء من جميع الأقطار وينبهه عليهم ويحضه على إكرامهم والتنويه بهم وهو الذى نبه إلى أبى الوليد محمد بن رشد وأشار إليه بتلخيص كتب الحكيم أرسطاليس لأن أمير المؤمنين كان يشكو من قلق عبارته أو عبارة المترجمين عنه وغموض أغراضه.

ومن المتأخرين فى هذه العلوم أبو على الصعلعل حسن بن محمد رئيس الموقتين بالمسجد الأعظم من غرناطة (٧١٦) قال لسان الدين وكان فقيهًا إمامًا فى علم الحساب والهيئة أخذ عنه الجلة والنبهاء قائمًا على الأطلال والرخائم

والآلات الشعاعيــة ماهرًا فى التعديل مداوم النظر ذا استنباطات ومــستدركات وتواليف نسيج وحده ورجعة وقته. ومثل أبى جعفر أحمد بن حسن بن باضة السلمى الموقت بالمسجد الأعظم بغرناطة كان نســيج وحده وقريع دهره معرفة بالهــيئــة وإحكامًــا للآلة الفلكية ينــحت منها بيــده ذخائــر يقف عندها النظر وتستدعى الحيرة جمال خط واســتواء صنعة وصحة وضع وبلغ فى ذلك درجة عالية ونــال عناية بعيدة حتى فـضل بما ينسب إليه من ذلك كثيــرًا من الأعلام المتقدمــين وازرت آلاته بالحمائريات والصفاريات وغــيرها من آلات المحكمين وتغالى الناس فى أثمانها أخذ ذلك عن والده الشــيخ المتفنن شيخ الجماعة فى هذا الفن. ومثل أبى العــباس أحمد بــن مفرج النباتى المشــهور (٦٣٨) وابن جابر الــرياضى المشهــور والوزير ابن الحاج (٧١٤) كان مــن العارفين بــالحيل الهندسية بصيرًا باتخاذ الآلة الحربية الجــافية والعمل بها انتقل إلى فاس واتخذ الدولاب المنفسح القطر البــعيد المدى والمحيط المتــعدد الأكواب الخفــى الحركة ومنهم ابن خاتمة الأديب الطبيب من أهل المائة الثامنة الذى كتب فى الوباء[١] كتــابًا عرف فــيه الميكروب والجــراثيم وأثبت العدوى بما لا يقل عن عــالم من علماء هذا العــصر وفيــه يقول ابن الخطيب أنه حســنة من حسنات الأندلس. ومن رجالات الأندلس وأعلامها ابن طملس الوزير كان كاتبًا مهندسًا إلى من ضارعهم فى علمهم من الأطباء والفلاسفة والحكماء والكياويين ممن لا يعدهم أناس من المؤرخين فى صف العلماء جهلا وتعنتًا.

هذا فى العلوم الطبية والطبــيعية والفلسفية والفلكيــة والرياضية وقد نبغ فى الأندلسين من العلماء فــى التاريخ والجغرافيا والأدب والرحــلات أفراد ما برحت كتاباتهم مرجعًا إلى اليوم لكل عالم ومؤلف.

---

(١) المقتطف م ٢٨ ص ٣٠٤.

وقد اشتبهوا علماء الغرب لهذا العهد فى العناية بالعلوم المادية وبرزوا فيها حتى نشأ لهم أئمة عظماء على ما رأيت سابقًا وألفوا فيها فأحسنوا إحسانهم فى صنائع لا يحسنها إلا صنع الأيدى دقاق النظر وكثيرًا ما كانوا يبسطون المسائل ويتوسعون فى تحقيقها ومنهم من يؤلف العشرة والعشرين مجلدًا فى علم واحد كما فعل أبو حيان مؤرخ الأندلس فألف كتابه فى ستين مجلدًا وألف أحمد بن أبان صاحب شرطة قرطبة كتاب السماء والعالم فى مائة مجلد وموضوعه اللغة جعله على الأجناس فى غاية الإيعاب بدأ بالفلك وختم بالذرة. وكثر فيهم الكثيرون من التآليف الموجودين فيها ومنهم من كان له مائة تأليف جيد. وقالوا أن تآليف ابن حزم بلغت نحو أربعمائة مجلد وتواليف عالم الأندلس عبد الملك بن حبيب السلمى بلغت ألفًا.

ومن مشاهيرهم ابن جبير الكنانى (٦١٤) الذى رحل إلى المشرق كما رحل كثير من علماء الأندلس قبله إلى مصر والشام والعراق والحجاز وغيرها فى طلب العلم وأخذ الحكمة ثم عادوا إلى بلادهم وكتب رحلته المشهورة البديعة.

واشتهر فى الجغرافيا أبو عبيد البكرى المتوفى سنة ٤٨٧ هـ صاحب كتاب معجم ما استعجم والمسالك والممالك ومحمد بن أبى بكر الزهرى الغرناطى من أهل المائة السادسة والشريف الإدريسى صاحب نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ويقال له كتاب رجار وذلك لأنه صنفه باسم رجار الثانى صاحب صقلية وجنوبى إيطاليا سنة ٥٤٨ وغيرهم.

ومن مؤرخيهم الحميدى وابن حيان وابن خلدون وابن الفرضى وابن بسام وابن بشكوال وابن الأبار وابن سعيد وابن الخطيب ومن أدبائهم

المشهوريــن ابن جزى وابن هانى وابن سهل الإسرائيلى ويحــيى القرطبى وابن رزين وابن عمار وابن ليون والباجى وابن الدباغ وابن الجد وابن القبطرنة وابن عبد البــر وابن السيد وابن عصــام وابن عطية وابن خفاجــة وابن وهبون وابن اللبــابة وابن الصائغ وابن ســارة الشنترينى وعــبادة وابن وهبــون وابن خروف وابن خاقان والمصحفى والأشجــعى وابن جهور وابن سملة واللمانى وابن برد وابن أبى أمية ومنذر بن سعيــد والزبيدى وابن القوطية وابن العربى (أبو بكر) وابن الأعلم والرمادى ومن ديبــاتهم حفصة بنت الحاج الكوبــى وعائشة بنت قادم وفاطمة الشيلارى وولاة بنت المستكفى بالله ومريم الفيصولى (الفصولى) وصفــية بنت عبــد الله التربى والغســانية والبلشيــة والوادى آشيه ولبنى كــاتبة الحكم بن عبــد الرحمن ومزنة كــاتبة الأميــر الناصر لدين الله وغاليــة المعلمة وريحانة المقرئة وفــاطمة المغامى. وقمر البغــدادية وحسانة التميمــية وأم العلا بنت يوسف الحجارية وأمة العزيز الشريف الحسنية وأم الكرام بنت المعتصم بن صمادح المرية. والعروضية مولاة أبى المطرف عــبد الرحمن بن غلبون واعتماد جارية المعتمد المشــهورة بالرميكية والعبادية جارية المعتضــد وبثينة بنت المعتمد ابن عباد. وحفصة بنت حمــدون. وزينب المرية. وغاية المنى وعائشة القرطبية وأسمــاء العامرية وأم الهــناء بنت القاضى عبــد الحق ومهجــة القرطبــية وهند جارية عبد الله بن مسلمة الشاطبى الشلبــية. وحمدة بنت زياد المكتب وأختها زينب قال ابن سعــيد أنهما شــاعرتان أديبتان من أهل الجــمال والمال والمعارف والصــون إلا أن حب الأدب كان يحــملهــما على مــخالــطة أهله مع صيــانة مشهورة ونزاهة موثوق بها. وسعدونة وغيرهن.

هذه حالة الـعلوم فى تلك المملكة التى بادت وباد سلطانهـا وقد رأيت كيف كثر المهندسون فى بلنسية وغرناطة وقـرطبة وإشبيلية وغيرها من حواضر الأندلس وبأعمال هؤلاء الأعلام زخر بحر العمران وقاست مدنية العرب على أمتن بنيان حتى دهش بها ابن القرن العشرين العلامة روزيه السويسرى على ما تقدم بك آنفًا.



الفصل العاشر

تفنن عرب الأندلس

لم تقف همـة الأندلسيين عنـد حد الإبداع فى هندسة الـدور والمصانع وعمل النقش والتزويق وتنجيد البناء والزخرف فيه وبناء الجسور وتعبيد الطرق وإنشاء السكور والسـدود. فإن هذه الأعمـال فى العمران كانت نتـائج لازمة للثروة العظيمة التى فاضت عليهم من زراعـاتهم وصناعاتهم ومتاجرهم. فقد تفننوا أنـواع التـفنن فى الزراعـة ونقلوا إلى الأندلـس من الشـام أنواعـًا من الأشجار والأزهار والغراس والبـقول لم يكن لإسبانيا عهد بـها ومنها انتقلت إلى أوروبا الغربيـة. ومن جملة ما أدخلوه من أنواع الشـجر والنبات الفـستق والموز والنخـيل والأرز والقطن والتوت وقـصب السكر والزعـفران والهـيلون وزهر الكاميلـيا الحمـراء والبيضـاء والورد اليابانى وغيـر ذلك وتفننوا فى هذا تفنن الغـربيين لعـهـدنا بزروعهم وورودهم وثمـارهم وبقـولهم حتى كـانت الأندلس المعـتدلة الأقـاليم الحسنة المناخ تـعطى ثلاثة مواسم فى السنة لحـسن استـثمارهـا فتدر على أهلهـا أخلاف الرزق والغنى سـواء فى العناية عندهم الأعذاء أى الأراضى التى تسقى بالأمطار أو التى تسقى سـيحًا أى بماء الأنهار ذلك لأنهم حفروا آبارًا وأسالوا المياه من القاصية وعموا خزانات وسدودًا.

وكان لهم بصـر بالصنائع حملوا مـعهم من الشـام أيضًا صناعـة صقل السيوف وهى الصناعة التـى نسبت إلى دمشق حتى اليوم فقيل لهـا بالإفرنجية Damasquinage أو Damasquinerie أو Damasquinure أى تـنـزيل الـذهـب والفضـة فى الفولاذ وقـد اشتق منه الفـعل عندهم Damasquiner كمـا نقلوا

صنعة الأقمشة من الحرير والكتان مـزينة بالرسوم من دمشق أيضًا فنسبت إليها عندهم وقالوا فى فعلها Damasser أى عمل ثيابًا على النمط الدمشقى.

واختصت قرطبة بدبغ الأديم أى الجلود وإشبـيلية بالحرير (كان فيها سنة ١٥١٥ ستة عشر ألف نول يعمل فيها ١٣٠ ألفًا من العملة فأصبح عددها سنة ١٦٧٣ أربعمائة نول فقط وذلك بعد جلاء الـعرب والإسرائيليين) وكان بمالقة يعمل الزجاج كـما "يصنع الفخار المذهب العجـيب ويجلب منها إلى أقاصى البلاد" وإلـى اليوم ينسـبون هذا الصنف إلى مـالقة فـيقولون فى بـلاد الشام المالقى للصحـاف والأوانى المعروفة. واشـتهرت ألمرية بعـمل الوشى والديباج والجوخ (كـان فيهـا ٦٠٠٠ نول للأجواخ) و«لكورة باجـة خاصيـة فى دباغة الأديم وصناعـة الكتـان» وكـان فى ألمرية «لنسـيج طرز الحـرير ثمـانمائة نول وللحلل النفيسة والديبـاج الفاخر ألف نول وللأسقلاطون[١] كذلك وللثياب الجرجانية كذلك وللأصفهانية مثل ذلك وللعنابى والمغاجر[٢] المدهشة والستور المكللة ويـصنع بهـا من صنـوف آلات الحـديد والنحـاس والـزجـاج مـا لا يوصف».

وكان الديبـاج والوشى يعمل أولا فى ثرطبة ثم غلبت عليـها ألمرية فلم يتفق فى الأندلس من يجيد عمل الديباج إجادة أهل ألمرية. وانفردت سرقسطة بصنعـة السمـور ولطف تدبيـره وهى الثيـاب الرقيـقـة المعروفـة بالسرقـسطة خصـوصيـة لأهل هذا الصقع «وفى جـميع نواحـيهـا يعمل الكتـان والحرير

---

(١) بلد بالروم تنسب إليه الثياب السقلاطونية وقد تسـمى الثياب بنفسها سقلاطونًا قال فى التاج هى كلمة رومية .

(٢) المعجر ثوب يمنى يلتحف به ويرتدى والجمع المعاجر.

الفائق" وكــان فى جيان ٦٠٠ نول للحــرير ويعمل السجــاد فى رية والسلاح والحلى فى قرطبة ومرسية وطليلطة وســرقسطة. وأخذت شاطبة تصدر الورق بكثرة منذ سنة ١٠٠٩ قــال ياقوت وفى شاطبــة يعمل الكاغد الجيــد ويحمل منها إلى ســائر بلاد الأندلس وبالجملــة فلاهل هذه الديار «خصــائص كثــيرة ومــحاسن لا تحــصى وإتقان لجــميع مــا يصنعون» قــال ميــجون: كــانت فى الأندلس عدة مــعامل مشــهورة لصنع الفســيفســاء ويسمونــه المفصص ونقلت صناعة الفسيفساء عن الرومان.

وهكذا رسخــت الصنائع فى أمصــار الأندلس برسوخ الحــضارة وطول أمدها قال ابن خلدون: «فأنا نجد فى الأندلس رســوم الصنائع قائمة وأحوالها مســتحكمة راسخة فى جــميع ما تدعو إليــه عوائد أمصارها كــالمبانى والطبخ وأصناف الغناء واللهو من الآلات والأوتار والرقص وتنفيذ الفرش فى القصور وحسن الترتيــب والأوضاع فى البناء وصوغ الآنية من المعــادن والخزف وجمع المواعــين وإقامــة الولائم والأعراس وســائر الصنائع التى يدعو إلــيها الــترف وعوائده فنجدهم أقوم عليــها وأبصر بها ونجد صنائعها مســتحكمة لديهم فهم على حصة موفورة من ذلك وحفظ متميز بين جميع الأمصار».

وذكر ســيديليون أن العــرب من حيث الأخلاق والعلم والصناعــة كانوا أرقى بكثيــر من الإسبان وهم أمتن أخــلاقًا وطبائع وفيــهم الكرم والإخلاص والإحسان الذى لم يكن عند عداتهم كما أن فيهم عزة النفس التى امتازوا بها فى كل زمن وكان الإفراط المضــر فيها داعيًا إلى إحداث البــراز. وساعد على عظمة العرب فى إســبانيا انتشار الآداب والعلوم والفنون على عهــدهم انتشارًا كبيرًا وكذلك الزراعة والصناعة وعم الذوق فى الــلذائذ العقلية جميع طبقات

المجتمع. والشعر يرقى النفوس. وغدت المنافسة الشريفة على أتمها فى الأفكار. وكانوا يكتبون على جميع المصانع اسم من أمر ببنائها واسم بانيها والأمة تمدح المحسن لبنائها وارتقت عندهم الهندسة والموسيقى والرقص إلى درجة ذات بال ولا يزال إلى اليوم فى الغرب يدرس أسلوب بنائهم ويعجب بما نقشوه فيها من النقوش وكان لدولة الموحدين فى الأندلس ذوق خاص فى البناء أنشأوا الجوامع والمآذن والأماكن العامة والمستشفيات والرباطات فى كل بلد من بلادهم وأقاموا الطرق والجسور والسدود وحفروا الآبار وأجروا الأنهار ا هـ.

ولقد كانوا يستخرجون من مناجمهم الزئبق والتوتيا والحديد والرصاص والفضة والذهب ويستقطرون السكر ويعملون اللبود "المشهور فى جميع الأرض بالجودة والصبغ والحسن. ولهم من الأولوان والأصابغ والحشائش التى يلون بها الحرير وأنواع الصوف والثياب ما ليس فى بلد من بلدان الأرض له نظير حسنًا وكثرة." ويحملون حاصلاتهم ومصنوعاتهم إلى أقطار المملكة العربية بل إلى أقاصى البلاد الشرقية والغربية فى البحار على سفن الأندلسيين التجارية وكان لهم أساطيل فى كل فرصة من فرضهم تقلع على الدوام من موانى الأندلس لتحمل إلى شواطئ إفريقية وآسيا وأوروبا ما يروج فيها من سلعهم ومعادنهم وثمارهم وحبوبهم.

قال كاباتون: كانت مدنية العرب فى إسبانيا ظاهرة فى الأمور المادية وذلك بما استعملوه من الوسائط الزراعية لإخصاب الأراضى البائرة فى الأندلس من الأساليب العلمية التى اتخذوها لريها وهى أساليب إن لم تكن من اختراع العرب فهم الذين أكملوا نواقصها وأحسنوا استخدامها كما أنهم

أسسوا معامل للحرير والجلود والبللور وغزال الصوف والقطن والكتان والقصب وأقاموا ما لا يحصى من المعاهد العامة وفيها ما يستدعى إعجاب الأمم بأسرها حتى بعد ثمانية قرون من إنشائه ا هـ.

وقال أحد علماء الفرنجة: كان فى الأندلس على عهد الحضارة العربية أربعون مليون نسمة من أرباب الصنائع والعمل (سكان إسبانيا اليوم ٢١ مليونًا وسكان البرتغال ٦ ملايين) وعلى ذلك العهد قامت فيها المدن المهمة التى يعجب الناس إلى اليوم بحرائبها وعلى ذاك العهد كانت الزراعة ناجحة وبفضل هندسة العرب كانت المياه تجرى إلى كل مكان فى بسائطها فتحمل الخصب والإمراع. وقال آخر: إن عهد استيلاء العرب على إسبانيا كان أسعد أيامها لنجاح زراعتها بما قام فيها من أعمال السقيا وبفضل غراسهم وزروعهم وحسن استثمارهم لمعادن الأرض ومناجمها ولما اغتنت البلاد كثر فيها سكان الدساكر والقرى كما كثر سكان المدن الكبرى.

ولا عجب - وحال البلاد من ارتقاء الصنائع والزراعة وتعدين المناجم واتساع التجارة قد بلغ هذا الحد - وإن كانت جباياتها من حقوقها وغير واجبها إلى سنة ٣٤٠ هـ نحو عشرين ألف ألف دينار قال ابن حوقل: ولست اشك على ما يوجبه النظر وتوطأ به الخبر فيما جمعه الحكم بعد هلاك أبيه من خدمة والمصادرين الذين كانوا فى جملته عن أسباب الأندلس ولوازمها وجباياتها وخراجها وأعشارها وصدقاتها وجواليها تمام أربعين ألف ألف دينار وبلغ خراج الأندلس على عهد عبد الرحمن الثالث عدا ما كانت دولته تستوفيه عينًا ٦,٢٤٥,٠٠٠ دينار. وحكى ابن خلدون عن الثقات من مؤرخى الأندلس: أن عبد الرحمن الناصر خلف فى بيوت أمواله خمسة

آلاف ألف ألف ألف دينار مكررة ثلاث مرات يكون جملتها بالقناطير خمسمائة ألف قنطار وكان هذا الملك يقسم الجباية أثلاثًا ثلث للجند وثلث للبناء وثلث مدخر وكانت جباية الأندلس يومئذ من الكور والقرى خمسة آلاف ألف وأربعمائة ألف وثمانين ألف دينار ومن الستوق[1] والمستخلص سبعمائة ألف وخمسة وستين دينار وأما أخماس الغنائم العظيمة فلا يحصيها ديوان. وانتهت جباية قرطبة أيام ابن أبى عامر إلى ثلاثة آلاف ألف دينار بالأنصاف.

كان للأندلسيين حذق باستخراج العلوم واستنباطها من ذلك أن عباس ابن فرناس حكيم الأندلس صنع فى بيته هيئة السماء وخيل للناظر فيها النجوم والغيوم والبروق والرعود وهو الذى استنبط صناعة الزجاج من الحجارة وأول من فك الموسيقى وصنع الآلة المعروفة بالمثقال (؟) ليعرف الأوقات على غير مثال واحتال فى تطيير جثمانه وكسا نفسه الريش ومد له جناحين وطار فى الجو مسافة بعيدة ثم سقط. فهو أول من حاول الطيران من بنى الإنسان.

وكان أهل قرطبة أول من عنى بتبليط المدن وكذلك إنارة الطرق فى الليل عرفت لأول مرة فى قرطبة أيضًا ولما ارتقت العلوم على عهد بنى الأحمر فى غرناطة اكتشفوا بل اخترعوا بارود المدافع وعرف منذ ذاك العهد ولا تزال مدافعهم التى دافعوا بها عن غرناطة محفوظة إلى اليوم فى أحد متاحف إسبانيا.

وفى الأندلس عرف الطبع فكان أحد أبنائها هو السابق فى مضمار هذا

---

(١) الستوق: الزيف البهرج الملبس بالفضة.

الاختراع الذى تنتفع الإنسانية بافيد منه. فكانت فهم فيه طريقة لم ينته إلينا خبرها بالتفصيل بل عرف إجمالا أن عبد الرحمن بن بدر من وزراء الناصر من أهل المائة الرابعة «كان ينفرد بالولايات فتكتب السجلات فى داره ثم يبعثها للطبع فتطبع وتخرج إليه فتبعث فى العمال وينفذون على يديه» فإذا كان هذا هو الطبع المعروف وما تظنه إلا هو فيكون ابن المنذر بدر العربى قد سبق الألمانى مخترع الطباعة بنحو أربعة قرون.

وذكروا أن ملوك غرناطة فرضوا جوائز للمخترعين لينشطوهم ويلقوا المنافسة بينهم وربما ميزوهم بامتيازات خاصة على نحو ما فعل لويز الرابع عشر وكولبر فى فرنسا. وعنى الأندلسيون بتأليف رسائل يفهمها كل إنسان تكون معوانًا على الانتفاع بالأعمال العامة وهم أنشأوا دساتير سهلة التناول يتدارسها الصناع والعملة فتفيدهم فيما هم بسبيله.

واخترع الأندلسيون الخطوط المخصوصة بهم كما اخترعوا الموشحات التى استحسنها أهل المشرق وصاروا ينزعون منزعها وكانت طبقاتهم فى نظمهم ونثرهم لا تخفى على بصير ولم يكن يخلو بلد من كاتب بليغ وشاعر مفلق بل «كان من مدنهم مثل شلب قل أن ترى من أهلها من لا يقول شعرًا ولا يعانى الأدب ولو مررت بالفلاح خلف فدانه وسألته عن الشعر قرض من ساعته ما اقترحت عليه وأى معنى طلبته منه» وخص أهل وادى آش بالأدب وحب الشهر. وعلل ذلك أحد العارفين بقوله أن أهل الأندلس أشعر الناس لما كثر الله تعالى فى بلادهم وجعله نصب أعينهم من الأشجار والانبهار والطيور والكؤوس لا ينازعهم أحد فى هذا الشأن.

وكانت للأندلسيين عناية بنقد الشعر لا يجوز عليهم ساقطه ونبغ كثيرون

منهم فى هذا المعنى وألفوا فيه التآليف الممتعة. وكانت لهم مدارس لتعليم القرآن والكتابة والحساب وتعلم العلوم على اختلاف ضروبها فى الجوامع من غير نكير يعلمون الفلك والجغرافيا واللغة والطب والنحو ومبادئ الطبيعة والكيمياء والمواليد الثلاثة. ذكروا أنه كان فى قرطبة ثمانون مدرية عامة وسكانها مليون نسمة وأن الموحدين أنشأوا فى الأندلس مدارس عامة ومدارس عليا وأغدقوا إحسانهم على العلماء يريدون أن يعيدوا إلى الأندلس بهاءها على عهد الأمويين وأن الحم أنشأ فى قرطبة سبعًا وعشرين مدرسة اتخذ لها المؤدبين يعلمون أولاد الضعفاء والمساكين القرآن وأجرى عليهم المرتبات وعهد إليهم فى الاجتهاد والنصح ابتغاء وجه الله العظيم وفى ذلك يقول ابن شخيص:

وسماحة المسجد الأعلى مكللة مكاتب لليتامى من نواحيها

لو مكنت سور القرآن من كلم نادتك يا خير تاليها وواعيها

وأحدث رضوان النصرى (٧٦٠) المدرسة بغرناطة ولم تكن بها وكانوا كما قال ابن سعيد يقرأون فى جميع العلوم فى المساجد بأجرة فهم يقرأون لأن يعملوا لا لأن يأخذوا جاريًا فالعالم منهم بارع لأنه يطلب ذلك العلم بباعث من نفسه يحمله على ذلك أن يترك الشغل الذى يستفيد منه وينفق من عنده حتى يعلم.

وكثيرًا ما كان ملوك الأندلس يقترحون على الناس حفظ الكتاب الفلانى من كتب الأدب والعلم ومن حفظه فله كذا دينار فما هو إلا أن يحفظه مئات طمعًا فى الجائزة وعم التلذذ بالأدب جميع طبقات المجتمع عندهم. وكثر من الشعراء كانوا ينتجعون بشعرهم الملوك والأمراء يمتدحونهم فيصلونهم

ويؤونهم زمنًا على ما نحو ما كانت الحـال فى القرون الوسطى فى المتشاعرين المتغنيين بـالشعر المتكففين فى بلاد الإفـرنج ويسمونهم بالأفرنسـية التروبادور والتروفير[1] Les Troubadours et les Trouueres

وكان تعليم البنات شائعًا عندهم وكثـير منهن يحفظن بضعة دواوين من دواوين العرب وينظمن ويتـرسلن كالأوروبيات اليـوم وإذا عرفت أن المدارس كانت مبـذولة فى المدن والقرى فلا تسـتغرب بعد ذلك أن قـال أحد مؤرخى الإفرنج أن سكان إسبانيا الإسلاميـة إلا قليلا كانوا يقرأون ويكتبون على حين كان أهل الطبقة العليا فى أوروبا المسيحية أميين لا يقرأون ما عدا أفرادًا قلائل من الشمامسة جعلوا الكتابة من شأنهم.

وكان للأندلسـيين غرام بتـسبل الكتب على المطالعة ولهم خـزائن كتب عامة وخاصة وكـانت قرطبة أكثر بلاد الأندلس كتبًـا وأهلها اشد الناس اعتناء بخزائن الكتب صار ذلك عندهم من آلات التعين والرئاسة فلا يكاد يخلو دار من خزانة فـيها كتب قـيمة. وقـد أنشأ الحكم الثانى عدة مـكاتب للمطالعين فكان يرسل وكـلاءه إلى المشرق يسـتنسخـون الأسفـار فمـا هو إلا أن يؤلف المؤلف تصنيفه حـتى تستنسخ منه نسخة أو تنسخ لتحـمل إلى خليفة الأندلس ولا يفوت بلاده شىء من حركة العقول وكانت دار كـتبه تحتوى على أربعمائة ألف مجلد جاء فهرسها فى أربعة وأربعين مجلدًا ولطالما أجزل ملوك الأندلس

---

(١) التروبادور شعـراء كانوا يقولون الشعر باللغـة الأفرنسية القديمـة فى القرن الحادى عشر إلى القرن الخامس عشر والتروفيـر شعراء بلغة وال من القرن الحادى عشر إلى القرن الخامس عشر كانوا يختلفـون إلى الملوك والعظماء ينشدون الأشعار ويضربون على الأوتار وربما أقاموا فى قصورهم مدة ثم يتنقلون.

الصلات لبعض مؤلفى الشرق والأندلس حتى يذكروا فى مقدمتها أنهم ألفوها برسم خزائنهم ومن المؤلفين من كـانوا يرضون بذلك ومنهم من لا يرضون به يقصدون أن يكون لمن يستفيد منه.

وكان للعلماء والمؤرخـين والشعراء والأدباء فى الأندلس مجـامع علمية وأدبية أشبه بالمجامع أو الأكاديميات فى هذا العصر وذلك لنشر العلم والمعارف ومفاوضة الحكمة بينهم فتنتج من اجتمـاعهم فوائد مهمة للعلم والمدنية. وكان المظفـر بن الأفطس صـاحب بطليـوس من أعلم الملوك بالأدب وله التـصنيف المترجم بالـتذكرة والمشـتهر بالكتـاب المظفرى فى خـمسين مـجلدًا فى الفنون والعلوم واستأدب لبنيه أبا عبد الله بن يونس وكان يحضره وأبا الحزم بن عليم وأمثالهما للمذاكرة والمباحثة ففـيد ويستفيد وكان لأبى عامر أمير الأندلس فى دولة هشام المؤيد مجلس معروف فى الأسبـوع يجتمع فيه أهل العلوم للكلام فيها بحضرته.

وقد أنشأ الحكم مجمعًا فى قـصر مروان وقلده غيره من أمراء الأندلس فأنشأوا مجامع لهم. وأنشأ أحمد بن سـعيد النصرى مجمعًا فى طليطلة فكان يجتمع عنده أربعون عالمًا من طليطلة والبلاد المجاورة ثلاثة أشهر فى السنة أى فى شهر تشرين الثـانى وكانون الأول وكانون الثانى يعقدون اجـتماعاتهم فى ردهة فرشت أحسن فـرش فيبدأون عملهم بتـلاوة آيات من الكتاب العزيز ثم يتذاكرون فى تفسير مـا قرأوا ويأخذ بهم الاستطراد إلى البحث فى فنون شتى من العلم والحكمة.

وكان أمير المسلمين على بن تاشفين لا يقطع أمرًا فى جميع مملكته دون

مشاورة الفقهاء[1] فكان إذا ولى أحدًا من قضائه كان فيما يعهد إليه أن لا يقطع أمرًا ولا يبت حكومة فى صغير من الأمور ولا كبير إلا بمحضر أربعة من الفقهاء فبلغ الفقهاء فى أيامه مبلغًا عظيمًا لم يبلغوا مثله فى الصدر الأول من فتح الأندلس. وأمير المسلمين هذا هو الذى اجتمع له ولأبيه من أعيان الكتاب وفرسان البلاغة ما لم يتفق اجتماعه فى عصر من الأعصار فانقطع إليهما من الجزيرة من أهل كل علم فحوله حتى اشتبهت حضرتهما حضرة بنى العباس فى صدر دولتهم. وكانت أيام بنى المظفر بمغرب الأندلس أعيادًا ومواسم وكانوا ملجأ لأهل الآداب خلدت فيهم ولهم قصائد أشادت مآثرهم وأبقت على غابر الدهر حميد ذكرهم.

كان أهل دانية أقرأ أهل الأندلس لأن مجاهدًا العامرى كان يستجلب القراء ويفضل عليهم وينفق الأموال فكانوا يقصدونه ويقيمون عنده فكثروا فى

---

(١) كان للقضاة فى الأندلس مشاورون حتى لا يصدروا إلا عن آراء ناضجة وإليك مثالا من تقليدهم: «هذا كتاب تنويه وترفيه، وأنهاض إلى مرقى رفيع، أمر بكتبه الأمير الناصر للدين أبو جعفر بن أبى جعفر أدام الله تأييده ونصره، للوزير الفقيه الأجل المشاور الحسيب الأكمل أبى بكر بن أبى جمرة أدام الله عزه أنهضه به إلى الشورى ليكون عندما يقطع بأمر، أو يحكم فى نازلة، يجرى الحكم بها على ما يصدر عن مشورته ومذهبه، لما علمه من فضله وذكائه وجده فى اكتساب العلم واقتنائه، ولكون هذه المرتبة ليست طريفة له بل تليدة، متوارثة عن أسلافه الكريمة وآبائه، فليتحملها - تحمل المستقل بأعبائها، اللحن بأنبائها، العالم بمقاصدها المتوخاة المعتمدة وأنحائها، والله يزيده تنويهًا وترفيعًا، ويبوئه من حظوته وتمجيده مكانًا رفيعًا، وكتب فى التاسع لذى حجة ٥٣٩ الثقة بالله عز وجل ا هـ.

بلاده. قلنا وإذا كـان عرض للأندلس فى بعض أدوارهـا ما فـرق جامـعتـها السياسية فاستفاد من ذلك أعداؤها فـقد كان لتفريقهم إلى ممالك صغرى داعيًا إلى التنافس أحيانًا حتى صار لكل إقليم مـزية ليست لغيره واختص كل ملك بشيء فاتخذ أسباب النجاح فيه واستدعى أهل الأخصاء من رجاله.

ومن لطيف تدبيرهم فى الإنفاق على الجند دون تحميل الأمة أعباءه وهو تحت السلاح ما عـمله ابن جهود رئيس قرطبـة من جعل أهل الأسواق جندًا وجعل أرزاقـهم رؤوس أموال تكون بأيديهم محـصاة عليهم يأخذون ربحـها فقط ورؤوس الأمـوال باقية مـحفوظة يؤخـذون بها ويراعـون فى الوقت بعد الوقت كيف حفظهم لهـا وفرق السلاح عليهم وأمرهم بتفـريقه فى الدكاكين وفى البيوت حتى إذا هم أمر فى ليل أو نهار كان سلاح كل واحد معه.

ومن أجمل أعمالهم فى إقامة قسطاس العدل أن هشام بن عبد الرحمن الداخل كان يبعث إلى البكور قومًا عـدو لا يسألون الناس عن سير العمال ثم ينصرفون إليه بمـا عندهم. واعترض له يومًا متظلم من أحد عـماله فبدر إلى الشاكى وقال له: احلف على كل مـا ظلمك فيه فإن كان صـربك فاضربه أو هتك لك سترًا فـاهتك ستره أو أخذلك مالا فخـذ من ماله مثله إلا أن يكون أصاب منك حـدًا من حدود الله فجعل الرجل لا يحلف على شـىء إلا أقيد منه.

ولقد بنى الخليفة عبد الله بن محـمد الساباط بين القصر والجامع بمدينة قرطبـة وكان يقف فيـه قل صلاة الجمعـة وبعدها فيـرى الناس ويشرف على اجتهـادهم وحركاتهم ويسر بجـماعاتهم ويسمع قول المتظلـم ولا يخفى عليه شيء من أمور الناس. وكان يقـعد أيضًا على الأبواب فى أيام معلومـة فترفع

إليه فيه الظلامات وتصل إليه الكتب على باب حديد قد صنع مشربًا مستطيلا لذلك فلا يتعذر على ضعيف إيصال بطاقته بيده ولا إنهاء مظلمة على لسانه وفتح بابًا فى قصره سماه باب العدل وكان يعقد فيه للناس يومًا معلومًا فى الجمعة ليباشر أحوال الناس بنفسه ولا يجعل بينه وبين المظلوم سترًا. فكانت سيرة عمالهم مع الرعايا أن يتحفظوا من كل أمر يوجب الشكوى منهم وينقبضون عن التحامل على من دونهم.

وهكذا فإنه لا يكاد يخطر ببالك شىء من أدوات الحضارة ومقومات العمران وأساليب العلم والمعرفة إلا قام به أو ببعضه ملوك الأندلس وأهلها حتى التماثيل فإنها كانت فى قصور العظماء والصور تزين بها غرفهم وردهاتهم لذلك أبقوا على أكثر ما كان فى البلاد قبل الفتح من التماثيل للاعتبار بها خصوصًا بعد أن انغمسوا فى الحضارة قال أبو عامر البريانى فى الصنم الذى بشاطبة:

بقية من بقايا الروم معجبة	أبدى البتاة بها من عملهم حكمًا
لم أدر ما أضمروا سوى أمم	تتابعت بعد سموه لنا صنمًا
كالمبرد الفرد ما أخطأ مشبهه	حقًا لقد برد الأيام والامما
كأنه واعظ طال الوقوف به	مما يحدث عن عاد وعن إرما
فانظر إلى حجر صلد يكلمنا	أشجى وأوعظ من قس لمن فهما

وقد أقاموا حدائق للحيوانات والنباتات وعنوا حتى بصراع الثيران فصارعوا الإسبانيين وربما فاقوهم وأولعوا بالرقص ولهم منه أنواع وكذلك

آلات الطرب كالخيال[1] والكرج والعود والروطة والرباب والقانون والمؤنس والكثيرة والقيشار والزلامى والشفرة والنورة والبوق وكان فى مدينة آبدة من أصناف الملاهى والرواقص المشهورات بحسن الانطباع والصنعة ما تظنهن فيه أحذق خلق الله تعالى باللعب بالسيوف والدكر وإخراج القزى والمربط والفتوخة.

---

(١) الخيال هو الذى يسمى خيال الظل أو الخيال الراقص أو خيال جعفر الراقص وجعفر اسم مخترعه يسميه العامة كركوز «قوة كوز» وبالفرنسية Marionnette, polichinelle والكرج تماثيل خيل مسرجة من الخشب معلقة بأطراف أقبية يلبسها النسوان ويحاكين بها امتطاء الخيول فيكررن ويفررن ويفاقفن وهى من آلات الرقص وتسمى بالفرنسية Carrousel, cheuaux de bois والروطة ضرب من الرباب معربة عن الأندلسية Rotta أو Rota وبالافرنسية rotte أو Rote والمؤنس قربه يركب فيها مزمار ولعلها من أصل إسبانى يقابلها بالفرنسية Musette أو Cornemuse والكثيرة ضرب من السنطور تنقر أوتارها بالأصابع Cihare والقثار Cuitare آلة ذات ستة أوتار ولها يد مقسومة إلى أنصاف ألحان يركب عليها دساتين والزلامى نوع من المزمار هو تصحيف الزنامى نسبة إلى زنام مستنبط الناى وكان زنام زماراً مشهوراً عند هارون الرشيد يضرب به المثل فى حسن صناعته. والشقرة والنورة مزماران الواحد غليظ الصوت والآخر رقيقه والعود معروف وبالفرنسية Luth والرباب معروف وبالفرنسية Rebec والقانون مشهور وبالفرنسية Harpe والبوق معروف. والدكر نوع من الرقص أو المعب يعرفه الزنج والحبش وبالفرنسية Kalenda والقزى نوع من لعب المشعوذين والفتوخة جمع فتخة وهى خاتم كبير وهى لعبة الخاتم «من مقالة للعلامة الأب انستاس مارى الكرملى: المقتبس م ا ص ٤٣٥».

أمـا الموسيـقى فقـد كان زرياب أدخلهـا الأندلس فكان يجـرى عندهم مجرى الموصلى فى الغناء وله طريق أخذت عنه وأصوات اسـتفيدت منه وعلا عند الملوك وأحسنوا إليه حتى كادوا يفرطون وشهر شهرة ضرب بها المثل. ولا عجب إذا قلنا أن تفرق الأندلس أصقاعًا وممالك كان أشبه بتفرق ألمانيا وإيطاليا قـبل وحدتهـمـا إلى إمارات صـغـيرة تتنـافس فى مضـمـار العلم والصنائع والعمران.



الفصل
الحادى عشر
مدينة مجريط

سار بنا القطار من باريز إلى جنوبى فـرنسا ماراً بأراض عامرة بزراعـتها دالة على سلامة ذوق أهلها وتفننهم فى ضرب الحياة المادية والأدبية ولما اجتزنا جبال البـيرنات «جبل الثنايا» دخلنا ليـلا محطة إرون الإسبانيـة قاصدين إلى مجريط عاصـمة إسبانيا الحديثة كثـرت لواعج الأشواق إلى الصقع الأندلسى واشتدت تباريح الذكرى.

وأكـثـر مـا يكون الشـوق يومًـا　　إذا دنت الخـيـام من الخـيـام

تمثلت للعين تلك الأمة العـربية الغربية، وما اثلتـه من الأمجاد فى هذه البلاد، وظهرت فيـه من مظاهر الحياة الراقية، تذكرت جـيلا عظيمًا، لم يبق سوى التـحدث بطيـب أخباره. والتـطلع إلى جمـيل آثاره، ذكرت عـشرات الألوف من العظماء، ضـمت الأندلس أعظمهم، وكان كل واحد أمـة يرأسه ومنهم من لم ينبغ أمـثال لهم فى أمة فى القـرون المتواصلة ووددت لو أمكن العمل بحكمة المعرى حين قال:

خـفف الوط مـا أظن أديم الأ　　رض إلا من هـذه الأجـيـاد

وحـرام بنا وأن قـدم العـهـ　　ـد هوان الآبـاء والأجـداد

مدينة مـجريط أو مدريد هى عاصـمة إسبانيـا منذ سنة ١٥٦٠ وسكنها اليوم يقـربون من سبـعمائة ألف وهى العـاصمة التى اخـتارها فيـليب الثانى لتوسطـها من البلاد وكـانت على عهـد العرب حـصنًا أو بليدة ولم ترزقـها

الطبيعة نهراً كبيراً ولا ضاحية بديعة مشجرة مثمرة بل كان قديمًا فى أرباضها بعض الغابات فحطمت ولم يبق منها إلا القليل. على أن فيها اليوم ما فى جميع عواصم الغرب من المرافق والمصانع. زرت بعضها وهى لا تختلف عن مصانع الأمم اللاتينية إلا قليلا بل هى أقل عظمة من مصانع إيطاليا وفرنسا وليس فى مجريط أثر يعتد به من آثار العرب، وأما آثار الإسبانيين الحديثة فليست مما يعجب به كثيراً لأنها حديثة عهد على الأغلب وتكاد تكون الصنعة الدينية متجلية فى كل مصنع من مصانعهم.

وأكثر أحياء المدينة ضيقة وبيوتها مزدحمة كسائر المدن المنحطة فى أوروبا إلا أن بعض الأحياء والدور المستحدثة هى على الطراز الغربى الجديد ولها حدائق وساحات على جانب من السعة مستوفاة شروط الصحة. وقد أنشئت فى زمن الحرب العامة فى مجريط وغيرها من مدن إسبانيا بيوت أقامها أغنياء الحرب أى الذين اتجروا فيها وربحوا وربحت بهم إسبانيا لحيادها وقد أحسنت لنفسها بالتزامها خطة المسالمة ومن هذه البيوت ما يقتضى ألوفًا من الليرات. فلما اشتدت الأزمة على أوروبا عامة لحق إسبانيا من أثرها شىء بالطبع فوقف العمل فى بعض تلك البنايات وكذلك كثير من المشاريع والعامل التى أحدثوها مغتنمين فرضوا تقاتل جيرانهم.

فى مجريط تسعون كنيسة من الكنائس التى لا شأن لها فى نظر التاريخ وعلم العاديات. وليس لها مقام رفيع فى باب البناء الحسن. المصانع التى من هذا القبيل ليست بالكثيرة العدد وقد قام القصر الملكى اليوم محل القصر العربى وكان هنرى الرابع جعل هذا القصر محلا للصيد. وفى متحفها الوطنى بعض آثار العرب التى أفلتت من أيدى الذين زهدوا فيها بصنع

المتعصبين من رجال الدين وخـربوها وأتلفوها. أما تاريخ هذا الحصن العربى أى مجريط بعظيم وخلاصته أنه أخـذ من العرب ثم استعادوه إلى أن استولى الإسبـان على طليطلة سنة ١٠٨٦ م فأصبـحت مجريط يومـئذ إسبانيـة وقد زادت مكانة مجريـط فكبرت رقعتهـا فى الجزء الثانى من القرن التـاسع عشر وذلك لاتصـالها بالخطوط الحـديدية مع الولايات ومع فرنسـا والبرتغـال وقد أنشئ فيـها فى العهـد الأخير تراموای كـهربائى Metropolitain تحت الأرض على مثال تراموای باريز لندرا وبرلين ونيويورك.



الفصل

الثانى عشر

دير الاسكوريال

أهم ما فى ضاحـية مجريط دير الاسكوريال على أحد وخمـسين كيلو مترًا منها بناء فيليب الثانى ونجزت عمارته سنة ١٥٨٤ وعمر فيه حفيده فيليب الرابع البـانتيـون مـدفن العظمـاء من الآل الملوكى وقيـل أنه اتفق على الدير خمسة عشر مليونًا ونصف مليون من البستاس أى الفرنك الإسبانى.

والأسكوريال كما قـال عنه واصفوه من الإفرنج مـثال مما تعمله الإدارة ومما لا تعمله فقد قيل أن الإدارة قـادرة فى بعض الأحوال وعاجزة عن إيجاد عمل واحد يدل على نبوغ وعبقرية وهذه الـشعلة الإلهية قد نقصت فى عمل بانى الدير. فمن شقائه أنـه نشأ فى عهد لم يشتهر بقـوة الإيجاد ولا بسلامة الذوق فجاء بـناؤه جافًا رغم ما تعاوزه مـن أيدى المهندسين لم ينم عن لطف ولا حوى أسـباب الجـمال. وغلب على البناء تصنع الملك فـيليب فى مظاهر أبهته وعظمته ولطالما ضيق صدور أسرته وحاشيته منه فى هذا الشأن فلم يكن لهم هم إلا أن يدهنوه. وكان من طبـعه أن يتدخل فـيما لا يعلم حتى أفـسد على المهندسين عملهم أو كاد وجاء العمل الذى أبقـاه للأعقاب حتى يفتخروا به وليس فيـه كبير مر من جـمال الهندام والنظام أشبه بسـجن مظلم وديماس منحوت.

وأهم ما يلفت النظر فى هذا الدير دار كتـبه وفيها خمـسة وأربعون ألفًا من المجلدات حوت كـثيرًا من المخطوطات والـنقوش والرسوم ومنهـا الكتاب المقدس الذى كان يـقرأ فيه بعض ملوك إسبـانيا فى القرون الوسطى وبعـضها

كتب باللاتينية ومنها ما كتب بالإسبانيولية أو اليونانية ومنها المزين بأجمل الرسوم ومنها المذهب المكتوب على ورق. ويهمنا من هذه المكتبة مجموعة الكتب العربية وهى ألفا مجلد كانت السفن الإسبانية غنمتها من مركب لأحد ملوك مراكش المتأخرين. وكان فى هذا الدير قبل القرن السابع عشر نحو ثلاثة آلاف مخطوط عربى فالتهمتها النار فى الحريق الذى نشب فى الدير مع ما التهمت من الكتب الأخرى.

فليست الكتب العربية فى خزانة الأسكوريال إسبانية المصدر كلها كما أكد لنا أحد علماء الإسبان وصاحب البيت أدرى بالذى فيه أخبرنى أن الإسبان غنموا هذه الكتب من سفينة كانت لأحد سلاطين الغرب الأقصى فوقعت فى أيدى الإسبان وقال آخران أصل هذه المجموعة كانت لأحد سفراء إسبانيا لدى الباب العالى ولما ادر الآستانة أهداها لملكه فوضعها هذا فى الدير الذى كان ملكًا له ولآله من بعده والرواية الأولى أصح.

وقد وصف هذه الكتب باللاتينية أحد رهبان الموازنة من سنة ١٧٤٩ - ١٧٥٣ وفيها ١٩٥٥ مخطوطًا رأيت نموذجات منها وقرأت وصف الأخير فيما كتبه أحد علماء المشرقيات من الفرنسيس ولا سيما القسم الذى يهمنى منها.

عرانى فى هذا الدير ما عرا كثيرين قبلى من السويداء ثم السكون والراحة والبرودة التى تدعو إلى العزلة والتفكر والانكماش والدروس وأنك لتشعر وأنت تسير تحت قباب الأسكوريال العارية من التفنن والزينة بهواء بارد من حياة الأديار كما تشعر فى مدارس أكفورد وبيعها والنازل هنا بطبيعته يرى دافعًا من نفسه يدفعه إلى أن يشغل نفسه بشىء من ملجأ أوفق لنسيان العالم يحمل ساكنه على البحث عن الحقائق وعلى الصبر فى كشف المائل المتعذرة المبهمة المجهولة مثل هذه المعاهد.

الفصل
الثالث عشر
قرطبة والزهراء

بأربعــة فاقت الأمــصــار قرطبــة | منهن قنـطرة الوادى وجـامـعـهـا
هاتان ثـنتــان والزهراء ثـالثــة | والعلم أعظـم شىء وهو رابعـهـا

لم يكتب لى أن أزور مدينة طليطلة لأشـهد فيها قصور العـرب القديمة ومـساجـدها القائمـة إلى اليوم وعـادياتهـا المأثورة وكانت من عظائم مـدائن الأندلس وهى من قرطبـة على عشرين يومًـا فاكتفـيت بزيارة ثلاث مدن من أمهات المدن الأندلـسية قرطبة وإشـبيلية وغرناطة وهى العـواصم الثلاث التى تأصل فيها حكم العرب وطالت أيامه.

وقرطبة كانت فى عزها أعظم مدائن الأندلس فـأصبحت الآن ليس فيها من السكان سوى ثمانيـة وخمسين ألف ساكن وقيل أن مسـاجدها بلغت ألفًا وستمائة مـسجد وحماماتها سـتمائة وذكر آخرون أنه كان فيـها مائتا ألف دار وثمانون ألف قـصر دورها ثلاثون ألف ذراع وكان بخارجهـا ثلاثة آلاف قرية فى كل واحدة منبـر ونقيـه مقلص[١] تكون الفـتيا فى الأحكام والـشرائع له يأتون كل جمعة للصلاة مع الخليفة بقرطبة ويطالعونه بأحوال بلدهم.

---

(١) المقلس: هو الذى يـلبس القـالس أو القلنسـوة وكـان يحـق للمـقلس وحـده فى الأندلس أن يفـتى وكان عليـه أن يستـظهر الموطأ والمدونة أو عـشرة آلاف حـديث وللمقلسين الحق أن يلبسوا القالس فقط وتكتب بالصاد (قاله دوزى فى ملحقه على المعجمات العربية).

قال المراكشى بلغت قرطبة من القوة وكثرة العمارة وازدحام الناس مبلغًا لم تبلغه بلدة. حكى ابن فياض فى تاريخه فى أخبار قرطبة قال كان بالربض الشرقى من قرطبة مائة وسبعون امرأة كلهن يكتبن المصاحف بالخط الكوفى فى هذا ما فى ناحية من نواحيها فكيف بجميع جهاتها وكان الماشى يستضىء بسرج قرطبة ثلاثة فراسخ لا ينقطع عنه الضوء.

وفى تواريخ الإفرنج أن قرطبة كانت منقطعة القرين بين مدن الغرب أى أوروبا وليس ما يشبهها بعمرانها وسكانها فكان فيها خمسمائة ألف ساكن و ٢٨٧ ربضًا وهى مكتظة بالسكان وقد قامت المتنزهات البهجة المغروسة بأنواع الأشجار على طول الوادى الكبير والقصور والمصايف مغطاة بالخضرة وكان فى هذا الوادى الكبير أربعة عشر ألف قرية.

فقرطبة كانت أعظم مدينة بالأندلس ليس بجميع المغرب «لها شبه كثرة أهل وسعة رقعة وفسحة أسواق ونظافة محال وعمارة مساجد وكثرة حمامات وفنادق» ووصفها المقدسى فقال: «وصف ما شئت من طيبها ورحبها فإنها جنة الأندلس على ما حكى لى وهى مصر الأندلس وقد دلت الدلائل واتفقت الآراء على أنه مصر جليل رفيق طيب وأن ثم عدلا ونظرًا وسياسة طيبة ونعمة ظاهرة ودينًا وهى فى جهاد ونفير أبدًا مع علم كثير وسلطان خطير وخصائص وتجارات وفوائد» وذكروا أن لأهل قرطبة رئاسة ووقار لا تزال سمة العلم والملك متوارثة فيهم.

ليس فى قرطبة اليوم من آثار العرب سوى قطعة من مسجدها الأعظم بناه عبد الرحمن الداخل وكان معبدًا للويزغوت على اسم القديس منصور وقد ملكه المسيحيون وأخذ المسلمون نصفه سنة ٧٨٥ م ولما شرع بالبناء ابتاع

عبد الرحمن النصف الآخر منهم كما فعل الوليد الأموى فى دمشق يوم بنى جامعها واستصفى النصف الآخر من أربابه المسيحيين وعوضهم عنه كنائس أخرى.

وزاد الناصر عبد الرحمن بن محمد فى المسجد الجامع بقرطبة زيادته المشهورة وفيها القبو الكبير الذى يصطف المؤذنون أمامه يوم الجمعة للآذان وهو من أعجب البنيان. وحبس المستنصر بالله على الجامع بقرطبة لما كملت زيادته ربع جميع ما جرته إليه الوراثة عن أبيه أمير المؤمنين فى جميع كور الأندلس وأقاليمها على ثغور الأندلس كافة تفرق غلات هذه الضياع عامًا بعد عام على ضعفائهم إلا أن تكون بقرطبة مجاعة فتفرق فيهم.

ومما قيل فى آثار مدينة قرطبة وعظمها حين تكامل أمرها فى مدة بنى أمية أن عدة الدور التى بداخلها للرعية دون الوزراء وأكابر أهل الخدمة مائة ألف دار وثلاثة عشر ألف دار ومساجدها ثلاثة آلاف وعدة الدور التى بقصرها الزهراء أربعمائة دار وذلك لسكنى السلطان وحاشبته وأهل بيته.

وقالوا أن المسلمين لما فتحوا قرطبة وجدوا بها آثار قنطرة فوق نهرها هلى حنايا وثاق الأركان من تأسيس الأمم الدائرة قد هدمها مرور النهر على الأزمان فتقدم إلى فضيلة النظر فيها عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه عندما اتصل به خبرها فأمر السمح بابتنائها فصنعت على أتم وأعظم ما بنى عليه جسر من حجارة سور المدينة. وربما كان هذا أول عمل فى العمران قام على أيدى عرب الأندلس فى القرن الأول للهجرة.

قال بعضهم لم يكن للعرب هندسة خاصة لما دخلوا قرطبة وكانوا يعتمدون على هندسة أهل البلاد التى تغلبوا عليها فنسجوا فى بناء المسجد

على مثال مساجد مصر ومسجد القيروان وكان هذا من أعظم مساجد الإسلام وقيل أنه بنى على شكل مسجد دمشق وكان فيه ١٤١٨ سارية تشبه غابة ملتفة والباقى منها الآن ٨٦٠ وهى أدق من سوارى الجـامع الأموى اليوم وقال آخر أن البانى وأخـلافه جلبـوا هذه السوارى من أبنية قـديمة وبيع مـسيحـية فى القاصية كجـنوبى فرنسا وإفريقية أى قرطاجنة والآستـانة وتبين أن أكثرها من مقالع أندلسيـة ومحراب هذا المسجد الجامع لا يزال مـحفوظًا وهو دهشة إلى اليوم وإلى ما بعد اليوم وعلو قبته تسـعة أمتار حفر فى قطعة واحدة من المرمر وعمل بالفسيـفساء وزبرت عليه آيات كريمة. وله اثنان وعشـرين بابًا معمولا بالنحاس بقى الآن منها ١٢ بابًا وعلى بعضها صـورة نقوشها الأصلية وقد قام البرج الذى هناك مقام المنارة التى أنشأها عبـد الرحمن الناصر. يقول جوسيه لو أقيمت البيعة التى أقامـوها وسط الجامع على عهد شارلكان فى مكان آخر لصار لهـا شأن وهى هنا من أبشع آثار الهندسـة إذا أحدث بانوها بهـا ضرراً على بناء وحيد من نوعه فى العالم.

وكان فى جامع قرطبة سبـعة آلاف مصباح تنعكس أنوارها على النقوش المذهبة والزمرد والياقوت والمفصص وغيـرها فتزيد فى جماله وعلى ما أصيب به هذا المسجد من الأضرار بقى إلى اليوم من أغرب أبنية الأرض.

قال غوتيـه: لا سبيل إلى وصف التأثر الذى يشـعر به المرء عند دخوله هذا المسجد الإسلامى القـديم فيتراءى لك أنك تسير فى غابة مـسقوفة لا فى بناء مصنوع وحيث اتجهت يضيع بصـرك فى صفوف من السوارى تلتقى وتمتد على مرمى البـصر مثل غـراس من المرمر ظهرت مـن تلقاء نفسـها على أديم الأرض ا هـ.

نعم إن البيعة التى أقيمت وسط جامع قرطبة والبيع الصغرى التى جعلت فى أكثر زواياه قد شوهت من محاسنه وأبدلته عن أصله وفى نية ديوان الآثار فيما بلغنى أن يرجع القديم كما كان وينقل الآثار المسيحية من جامع قرطبة ليبقى بدون زيادة ولا نقصان طرازًا فى البناء منقطع القرين فى الأرضين إلا أن البيعة الوسطى شارلكان يصعب نقل أنقاضها لما فيها من الزخرف ولما صرف عليها من المال.

هذا ما بقى من آثار الأجداد فى قرطبة وقد زرتها وأرباضها فرأيتها وهى على منبسط من الأرض تشبه ضاحيتها ضواحى دمشق وهندسة أكثر بيوتها الجديدة على الطراز العربى البديع ولأهلها إلى هذا العهد حرمة له وغرام به وحرص عليه يعدونه من جملة مقدساتهم. وعلى أربعة أميال من قرطبة بنيت مدينة الزهراء سنة ٣٢٥ هـ بناها الناصر لدين الله الأموى فى ست عشرة سنة وطولها ألف وستمائة ذراع وعرضها ألف وسبعون ذراعًا وجعل فى سورها ثلثمائة برج وخص قصورًا للخلافة وثلثها للخدم وثلثها بساتين وكان يدخل فيها كل يوم من الحجر المنحوت ستة آلاف صخرة سوى الآجر وغيرها وحمل إليها الرخام من أقطار الغرب ودخل فيها أربعة آلاف وثلثمائة سارية وأهدى ملك الإفرنج لبانيها أربعين سارية رخام وأما الوردى والأخضر فمن إفريقية والحوض المذهب جلب من قسطنطينية والحوض الصغير على صورة أسد وصورة غزال وصورة عقاب وصورة صعبان وغير ذلك والكل بالذهب المرصع بالجوهر وكان ينفق عليها ثلث دخل الأندلس وكان دخلها يومئذ خمسة آلاف ألف وأربعمائة ألف وثمانين ألف درهم.

وقال أحد المؤرخين أن مبانى الزهراء اشتملت على أربعة آلاف سارية

جلبت من روميـة وقسطنطينية وقرطاجنة وتونس وإفـريقية فيـها خمسـة عشر ألف باب ملبس بالحديد والنحـاس المموه وكان عدد الفتـيان فيهـا ثلاثة عشر ألف فتى وسـبعمـائة وخمسـين فتى وعدد النسـاء بقصر الزهراء سـتة آلاف وثلثمـائة امرأة وأربع عـشرة امـرأة وكان على الحـجر الذى جلب من مـقالع الأندلس أو حمل من القـاصية نقوش وتماثيل وصور عـلى صور الإنسان ولما جلبه أحمد الفيلسوف وقيل غيره أمر الناصر بنصبه فى وسط المجلس الشرقى المعروف بالمؤنس ونصب عليه اثنى عشر تمثالا. وقال بعضهم عمل فى الزهراء عشرة آلاف عامل خـمسًا وعشرين سنة وفى الشرق من الوادى الكـبير مدينة الزاهرة التى بناها المنصـور بن أبى عامر التى يقول فـيها ابن عـربى لما دخلها ووجدها متهدمة:

ديار بأكـــــفـــاف الملاعب تـلمع	وما أن بهـا من ساكن فـهى بلقع
ينوح عليها الـطير من كل جانب	فـتـصمت أحـيـانًا وحـينًا ترجع
فـخـاطبت منهـا طائرًا متـفـردًا	له شـــجن فى القلب وهـومـروع
فـقلت على ماذا تنوح وتشـتكى	فقـال على دهر مضى ليس يرجع

وقد حرقـت الزهراء وهدمت فى حدود سنة ٤٠٠ هـ وبقيت رسـومها وخربت قرطبـة وما فيهـا من القصور والمرافق فى حرب البـربر وسقطت فى أيدى العدو سنة ٦٣٣ هـ بعـد أن كانت مدة خـمسة قرون وخـمس قرن فى أيدى العرب ولم يعـد حكمهم إليهـا بعد ذلك ولما خلت قـرطبة من سلطان يرجع إلى أمره صـار كل من قويت يده عمـر مدينة فخـبت قرطبة وعـمرت إشبيلية.

* * *

الفصل

الرابع عشر

مدينة إشبيلية

على شاطئ الوادى الكبير فى أجمل بقاع الأندلس وأعدلها هواءً وأزكاها تربة قامت هذه العاصمة التى كانت من أعظم مدن الأندلس بعد سقوط قرطبة فى أيدى الإسبان وكانت مدينة الحظ والسرور على اختلاف الدهور والعصور. وليس اليوم فى إشبيلية بقايا كثيرة من آثار العرب إلا الجيرالد أو منارة الجامع الأعظم وهى أعجوبة إشبيلية ترى من مكان بعيد بناها مهندس عربى من سنة ١١٨٤ - ١١٩٦ لأبى يوسف ابن يوسف من دولة الوحدين وهى من الآجر يدق حجمها كلما ارتقت فى الهواء وقاعدتها عبارة عن مربع ذى ١٣ مترًا و ٥٥ سنتيمترًا ويزيد سمك الجدران على مترين وقد تشوهت بما زاد عليها الإسبان بعد خروجها من أيدى العرب وهى الآن قبة جرس البيعة الكبرى.

قال فى ذيل اللباب: فدخل (يعنى أمير المؤمنين يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن إشبيلية فى غرة صفر سنة ٥٩٣ فأخذ فى إتمام بناء الجامع وتشييد منارة وعمل التفافيح من أملح ما يكون من عظمة لا أعرف له قدرًا إلا أن الوسط منها لم يدخل على باب المؤذن حتى قطع الرخامة من أسفلها وزنة العمود الذى ركب عليه أربعون ربعًا من الحديد وكان الذى صنعها ورفعها فى أعلى المنار المعلم أبو الليث الصقلى وموهت تلك التفافيح بمائة ألف دينار ذهبًا ا هـ.

ومن أجمل ما فى كنيسة إشبيلية اليوم والجامع أمس ناووس من الصلب

فيه بقـايا خريستوف كـولمبس الملاح الجنوبى الذى اكتشف أميـركا يحمله من أربعة أطرافه ملك قشتالة وملك أرغون وملك ليون وملك نافار وهو من صنع ميليدا سنة ١٨٩٢ كـان فى كنيسة هافان ثم نقل إلى إشبـيلية سنة ١٨٩٨ بعد أن تحررت كوبا من إسبانيا.

تقرب إشبيلية من البحر ولا ترتفع عن سطحه أكثر من ثمانية أمتار وقد قال الفرنجـة فيها: ليست الجـيرالدا ولا سائر مصانع إشـبيلية ولا كنوز آثارها وجميل نقـوشها على الحيطان هى التى اشتـهرت بها إشبيليـة البديعة ورددت المثل الذى سار فيها "من لم ير إشبيلية لم ير غريبة" بل إن ما اشتهرت به فى جميع إسـبانيا مظاهر سرور الحيـاة فيها من مراقص وأفراح ومـواسم وحركة البهجة الدائمة التى تنبعث من سكانها على الدوام.

جرت مناظرة بين يدى منصور بن عبـد المؤمن بين العالم أبى الوليد بن رشد والرئيس أبى بكر بن زهر فقال ابن رشـد لابن زهر فى كلامه: ما أدرى ما تقول غير أنه إذا مات عالم بإشبيلية فأريد بيع كتبه حملت إلى قرطبة حتى تباع فيها وإذا مات مطرب بقرطبة فـأريد بيع تركته حملت إلى إشبيلية. وبهذا عرفت أن إشبيلية بلدة طرب وسرور فى معظم أدوارها. ولطبيعة الإقليم دخل كبير فى هذا الشأن.

فى إشبيلية قصور كما فى قرطبة مصايف رزتها وزرت حدائقها وطوفت فى أعطافها وهى ملك لأناس من أغنياء البلاد تتناقل من سـيد فيهم إلى سيد ومنها ما جعل كما هو بيت بيلاتـوس على الداخل إليه جعل يتقاضاه الحارس ليصرف على الفقراء كما جعلت الحكومة على كل داخل إلى معهد من معاهد العرب وغيرهم جعلا من النقود لتـصرف منه على الترميم فليس فى البلاد ما

يعفى الناظر إليه والزائر له من دفع النقـود من متاحف وآثار إلا إذا كان بعض المغاور والحـصون والسدود الخربة التى قـامت فى كل ناحية من أنحـاء البلاد التى ظل فيها حكم العرب نافذًا دهرًا طويلا.

كانت إشـبيليـة تعد من العواصـم بكثرة سكانها ولما سـقطت فى أيدى الأعداء هاجر من مـسلميها فقط زهاء ثلـثمائة ألف مسلم إلى قرطبـة وجيان وبلنسية وغرناطة حيث كـانت راية بنى نصر تخفق. وناهيك ببلدة يهاجر من سكانها هذا العـدد. وسكانها اليوم ١٤٨ ألفًا وتعد من المـدن المتجددة وليس لها مسـحة من القديم إلا ما كان من بـعد عهد العرب وقـد سقطت من بعد جلائهم عنها إلى الحضيض.



الفصل

الخامس عشر

مدينة غرناطة

بلـد تحف به الريـاض كـــأنه وجه جـميل والريـاض عذاره
وكـأنما وادى مـعـــصم غـادة ومن الجسور المحكمات سواره

هذا ما قـاله ابن الخطيب فى هذه العاصمـة آخر ما حكمتـه العرب من أرض الأندلس من عواصـمها وحواضـرها جمعت فـيها بقاياهم وجـالياتهم فظلوا فيها نحو قرنين ونصف قرن وعمروها فأدهشوا العالم بعمرانها. جاءها جميع المسلمين الذين لم يجبوا أن يبقوا فى البلاد التى وقعت فى قبضة العدو يحتمون بملوكهـا من بنى نصر جاءها ألوفًا ألوفًا من قرطبة وإشبـيلية وبلنسية يحملون إليها ما كان مبعثرًا من الصنائع والثروة فى تلك الأرجاء.

قالوا أن غرناطة قاعدة بلاد الأندلس وعروس مـدنها وخارجها لا نظير له فى بلاد الدنيا وهو مسيرة أربعين ميلا يخرتقه نهر شنبل المشهور وسواه من الأنهر الكثيرة والبساتين والجنات والرياضات والقصور والكروم محدقة بها من كل جهة. وحكى ابن سـعيد أن غرناطة تسـمى دمشق الأندلس لسكنى أهل دمـشق بها عنـد دخولهم الأندلس وقـد شـبهـوها بهـا لما رأوها كـثرة الميـاه والأشجار وقد أطل عليها جبل الثلج Sierra - Nevada - كما أطل جبل الثلج أو جبل الشيخ أو جبل حرمون على دمشق - وفى ذلك يقول ابن جبير:

يـا دمـــــشق الـغـــــرب هاتيك لـقـد زدت علـيـهـــا
تحـــتك الأنهـــار تجـــرى وهى تـنصـب إليــــهـــا

قال ابن سعيد أشار ابن جبير إلى أن عرناطة فى مكان مشرف وغوطتها تحتهــا تجرى فيها الأنهــار ودمشق فى وهدة تنصب إليها الأنهــار وقد قال الله تعالى فى وصف الجنة تجرى من تحتها الأنهار. أنا غوطة غرناطة اليوم فليست كغوطة دمشق بأشجارها الملتفة ولا كما كانت كذلك على عهد العرب بل هى جرداء ولذلك كان منظرها أشبه بمنظر ســهل البقاع إذا أطلت عليه من سفوح لبنان الغربى.

وغرناطة فى كورة ألبيرة من أشرف كور هذا الإقليم نزلها جند دمشق.

قال الرازى: وفحص ألبــيرة أى سوادها وريفها لا يشــبه بشىء من بقاع الأرض طيبًا ولا شرفًا إلا بالغوطة غوطة دمشق.

وقال ابن الخطيب: وفحصها أى فحــوص غرناطة الأفيح المشبه بالغوطة الدمشقيــة حديث الركاب وسمر الليالى قد دحاه الله فى بسط ســهل تخترقه المذانب وتخلله الأنهار والجداول وتزاحم فــيه الغرف والجنات فى ذرع أربعين ميلا ونحوها تنبو العين فيها عن وجــهه ولا تتخطى المحاسن منها مقدار رفعه الهضاب والجــبال المتطامية منه بشكل ثلثى دائرة قد علت منه المدينة فــيما يلى المركز من جهة القــبلة مستندة إلى أطواد سامية وهضاب عاليــة ومناظر مشرقة فهى قيد البصر ومنتهى الحسن ومعنى الكمال.

وينزل الثلج شتاء وصــيفًا على جبل غرناطة وينبــجس منه ستة وثلاثون نهرًا كما تنبجسن من سفوحه العيون. قال أبو الحجاج ابن حسان:

أحن إلى غـــرناطة كلمـــا هفت ... نسيم الصــبا تهدى الصبــا وتسوق

ســقى الله من غــرناطة كل منهل ... بمنهــل ســـحب مـــاؤهــن هريق

ديار الحسن بين خيامها وأرض بها قلب الشجى مشوق
أغرناطة العلياء بالله خبرى: أللهائم الباكى إليك طريق؟
وما شاقنى إلا نضارة منظر وبهجة داء للعيون تروق
تأمل إذا أملت حوز مؤمل ومد من الحمرا عليك شقيق
وأعلام نجد والسكينة قد علت وللشفق الأعلى تلوح بروق
وقد سهل شنيل فرندًا مهندًا نضى فوق در ذر فيه عقيق
إذا تم منه طيب نشر أراكه أراك فتيت المسك وهو فتيق
ومهما بكى جفن الغمام تبسمت ثغور أقاح فى الرياض أنبق

ولما غدت غرناطة عاصمة ابن الأحمر من دولة بنى نصر بالسيف تارة وبحسن السياسة مع الأحزاب المعادية أو بمحالفة القشتاليين الإسبانيين وبنى مرين المراكشيين تارة أخرى جعلها العرب الذين طردوا من المدن المجاورة وطنًا لهم ونشط ملوكها الصنائع والتجارة وعمروا الطرق والمجارى وتسلسل ذلك فيها فأتم الثانى ما بدأ به الأول وزينوا البلاد بأبنية بديعة فأصبحت غرناطة أغنى مدينة فى شبه جيزرة أيبيريا وبحكمة أمرائها انبعثت منها شعلة المدنية المغربية فى إسبانيا وأنست عنايتهم بالزراعة والصناعة عهد قرطبة وما كان فيها من العلوم والصناعات وجمال البناء وأصبحت قصورهم مثابة العلماء والأدباء والفلاسفة «فصارت المصر المقصود والمعقل الذى تنضوى إليه العساكر والجنود» ولما استولى عليها الإسبان سنة ١٤٩١ م بعد أن حاصروها سبعة أشهر فنيت خلالها أزواد المحاصرين من العرب وفنيت خيلهم كما فتى كثير من نجدة

الرجال بالقتل والجرحات - كان سكانها نصف مليون نسمة (نفوسه اليوم ٧٦ ألفًا) فـانحطت على عهد الإسبـان بعد حين وأقفـرت من السكان بما أصدره الملوك الكاثوليك من الأوامـر الخرقاء ولما اشـتدت فيـها وطأة ديوان التفـتيش الدينى ظل الحكام والرهبان يستأصلون شأفة العـرب حتى لم يبقوا منهم باقية وكان لها على عهـد العرب ١٠٣٠ برجًا متزاحمة بـالبيوت وقال ابن الخطيب أن الأبراج بلغت إلى ما يناهز أربعة عشر ألفًا وكان فى جوارها ما ينيف على ثلاثمائة قرية عدا ما يجاور الحضرة من قـرى الإقليم أو ما استضيف إليها من حدود الحصـون المجاورة «وكان أكثـرها أمصارًا فيـها ما يناهز خمسـين خطبة تنصب فيها لله المنابر وترفع الأيدى وتتوجه الوجوه ويشتمل سورها وما وراءه من الأرحاء الطاحنة بالماء ما بنيف على مائة وثلاثين رحى.



الفصل السادس عشر

قصر الحمراء

همم الملوك إذا أرادوا ذكرها	من بعدهم فبالسن البنيان
أو ما ترى الهرمين قد بقيا وكم	ملك محاه حوادث الأزمان
إن البناء إذا تعاظم شأنه	أضحى يدل على عظيم الشأن

الحمراء ويقال لها القصبة الحمراء ومعنى القصبة عندهم القلعة وتسمى حمراء غرناطة وهى مطلة على مدينة غرناطة أطلال الصالحية من سفح قاسيون على دمشق. سميت بالحمراء لاحمرار جدرانها بل للون التربة التى قامت عليها فى سفح جبل غرناطة ومعظمها مبنى بالخزف والكلس والحصباء. وفى قصبة الحمراء قصور العرب وهى ثلاثة قصور منفصلة عن القلعة وتدخل فيها المدينة الصغرى القائمة على تلك الأكمة وقد بنى كل قصر منها فى زمن غير زمن القصر الآخر وبقى من القصر الأول شىء قليل وهى المقصورة والكنيسة وكان جامعًا بناه محمد الثالث من ملوك بنى نثر قال فيه ابن الخطيب أن أعظم مناقبه المسجد الجامع بالحمراء على ما هو عليه من الظرف والتنجيد والترفيش وفخامة العمل وأحكام أنواع الفضة وإبداع أثرها أنفق عليه من مال الجزية فظهر بها منقبة له يتيمة فاق بها من تقدمه ومن تأخره من قومه.

والقصر الثانى قصر الآس وفيه الآس الكثير كان مقر السلطان ومجلس الحكم أو دار السلطنة يقعد فيه للمظالم ويستقبل السفراء وكبار رجال المملكة.

والقصــر الثالث منعــزل عن القصرين الآخــرين قليلا وكــان فيه دائرة حــرمه ومساكنه الخاصة وفى هذا القصر صحن الأسود وهو فى الجزء الأوسط منه.

فقــاعة السفراء عــبارة عن مربع مســاحته ١١ متــرًا بعلو ١٨ كان الملك يستقبل بها وفيها عرشه إلى الشمال أمام المدخل وهى تطل على ربض البيازين ومدينة غرناطة وقد ركبت فى كل نافذة وسطى أعمدة صغيرة من العجمى أو الشمسية تدفع حرارة الشمس. ونقش هذه القاعة من أجمل ما حوت الحمراء وكان فيها ١٥٢ صورة مخــتلفة طبعت بالجص الطرى على الجدران فى قوالب من حديد وهى إلى الحمرة والزرقة المشبعة.

أما فناء الأسود فهــو صحن واسع فيه اثنا عشر أســدًا رابضًا من الرخام تحمل الإناء العظيم القائم وسط الدار ويخرج الماء من أفواهها وتسيل الفوارات من أعلى الصــحن الذى جــعل قطعة واحــدة كبــيــرة كأنه حــوض واسع من أحواض بيوت دمــشق القديمة وكأن ابن حمــديس الصقلى وصف هذه الدار عندما وصف دار المنصور ببجاية فقال:

واعــمر بقــصــر الملك ناديك الذى ... أضــحى بمجــدك بيتــه معــمــورا

قــصــر لو أنك قــد كــحلت بنوره ... أعــمى لعــاد إلــى المقــام بصــيــرا

واشــتق من معنى الحــياة نسيمــه ... فــيكــاد يحــدث للعظــام نشــورا

نسى الصــبــيح مــع المليح بذكــره ... وســما فــفــاق خورنــقا وســديرا

ولو أن بالإيــوان قــوبــل حــسنه ... مــا كــان شــيــئًــا عنده مــذكــورا

أعيت مصانعه على الفرس الأولى ... رفــعوا البــناء وأحكموا الــتدبيــرا

ومضت على الروم الــدهور وما بنوا ... لملوكـــهم شـــبــهًـــا له ونظيـــرا

أذكرتنا الفردوس حين أريتنا ... غرفًا رفعت بناءها وقصورا

فالمحسنون تزيدوا أعمالهم ... ورجوا بذلك جنة وحريرا

والمذنبون هدوا الصراط وكفرت ... حسناتهم لذوبهم تكفيرا

فلك من الأفلاك إلا أنه ... حقر البدور فاطلع المنصورا

أبصرته فرأيت إبداع منظر ... ثم انثنيت بناظرى محسورا

وظننت أنى حالم فى جنة ... لما رأيت الملك فيه كبيرا

وإذا الولائد فتحت أبوابه ... جعلت ترحب بالعفاة صريرا

عضت على حلقاتهن ضراغم ... فغرت بها أفواها تكبيرا

فكأنها لبدت لتهصر عندها ... من لم يكن بدخوله مأمورا

تجرى الخواطر مطلقات أعنة ... فيه فتكبو عن مداه قصورا

بمرخم الساحات تحسب أنه ... فرش ألمها وتوشح الكافورا

ومحصب بالدر تحسب تربه ... مسكًا تضوع نشره وعبيرا

يستخلف الأصباح منه إذا انقضى ... صبحًا على غسق الظلام منيرا

وضراغم سكنت عرين رئاسة ... تركت خرير الماء فيه زئيرا

فكأنما غشى النضار جسومها ... وأذاب فى أفواهها البللورا

أسد كأن سكونها متحرك ... فى النفس لو وجدت هناك مثيرا

وتذكرت فتكاتها فكأنما ... أقعت على أدبارها لتثورا

وتخالها والشمس تجلو لونها ... نارًا وألسنتها اللواحس نورا

فكأنما سلت سيوف جداول ذابت بلا نار فعدن غديرا

وكأنما نسج النسيم لمائه درعًا فقدر سردها تقديرا

وبديعة الثمرات تعبر نحوها عيناى بحر عجائب مسجورا

شجرية ذهبية نزعت إلى سحر يؤثر فى النهى تأثيرا

قد صولجت أغصانها فكأنما قنصت لهن من الفضاء طيورا

وكأنما تأبى لواقع طيرها أن تستقل بنهضها وتطيرا

من كل واقعة ترى منقارها ماءً كسلسال اللجين نميرا

خرس تعد من الفصاح فإن شدت جعلت تغرد بالمياه صقيرا

وكأنما فى كل غصن فضة لانت فأرسل خيطها مجرورا

وتريك فى الصهريج موضع قطرها فوق الزبرجد لؤلؤًا منثورا

ضحكت محاسنه إليك كأنما جعلت لها زهر النجوم ثغورا

ومصفح الأبواب نظروا بالنقش بين شكوله تنظيرا

تبدو مسامير النضار كما علت فلك النهود من الحسان صدورا

خلعت عليه غلائلا ورسية شمس ثرد الطرف عنه حسيرا

وإذا نظرت إلى غرائب سقفه أبصرت روضًا فى السماء نضيرا

وعجبت من خطاف عسجده التى حامت لتبنى فى ذراه وكورا

وضعت به صناعة أقلامها فارتك كل طريدة تصويرا

وكأنما للشمس فيه ليقة مشقوا بها التزويق والتشجيرا

وكــأن مــاء الــلازورد مــخـــرم	بالخط فى ورق الســمــاء سطورا
وكــأنما وشــوا عليــه مـــلاءة	تركـوا مكان وشاحـها مـقصـورا
يا مالك الأرض الـذى أضحى له	ملك السـماء على العـداة نضيـرا
كم من قـصـور للملوك تقـدمت	واسـتوجب لـقصـورك التـأخيـرا
فـغـمـرتهـا وملكت كل رياسـة	منهـــا ودمـرت العـدا تدمـــيـرا

وهناك قاعة الحم وقاعة بنى سراج والمقصورة. تخرج من واحدة فتدخل فى أخرى فتـخالك فى جنة عاليـة قطوفها دانية لا تسـتطيع وصفها لبـدائعها الكثيـرة وهناك قاعة اسمـها قاعة الأخـتين كانت على ما يظهـر لجلوس نساء الملك فى الشتاء ونقشها من أقـصى ما بلغه النقش العربى من الإتقان وأهم ما فيها المقـرنص الذى حوى نحو خمسة آلاف شكل مخـتلف بعضها عن بعض تألف منها مجموع يصـعب لجماله وقبتها أعجوبة البناء ومـثال الصبر والعمل وكأنها كانت فى يد صانعـها كالعجين يعمل فيها مـا شاء من الصور أو كأنها خلقت خلقة ولم تمسها يد بشر.

وبالقرب من قصور الحمراء جنة العريف وهى حديثـة كبرى فيها جميع أشجار القطر وأزهاره قاست هندستها فى منحـدراتها وأكماتها وبسائطها على أسلوب يأخذ بمجامع القلوب وفيها سطوح ومـغاور ومخابئ وفوارات وسياج تشبـه المصايف الإيطالية فى عـهد النهضة وفـيها كـثير من شجـر السرو ومن جملتها سروة يدعونها سروة السلطان عمرها نحو ستمائة سنة وتحتها فيما يقال تواعدت امرأة أبى عبد الله مع ابن سراج.

ولقد كان للسلطان أوائل المائة الثامنة فى غـرناطة ما يناهز مائة جنة مثل

جنة العريف على ما روى صاحب الإحاطة بمدينة فيها مثل هذا العدد الدثر من الجنان وذلك فى الحقيقة من إمارات المدنية والرفاهية.

ورد ذكر الحمراء لأول مرة فى واقعة حدثت سنة ٢٧٧ هـ فاعتصم بها القيسيون من العرب وقد تأثرهم عصاة من الإسبانيين فنجا الأمير الأموى بجيلة غربية وخرج مخرجًا مدهشًا مع رجاله ولما استولى الموحدون على غرناطة التجأ المرابطون إلى هذا القصر. واشتهرت الحمراء على عهد دولة بنى نصر أو بنى الأحمر الذين استقلوه بإمارة غرناطة بعد سقوط قرطبة وإشبيلية وجعلوها عاصمتهم فأنشأ محمد بن الأحمر قصره الملكى بالقرب من السور والقلعة وفى عهد الامبراطور شارلكان جعل جامع الحمراء كنيسة فأبدلت صورة القصر الملكى القديم وأنشئ باب المدخل الذى يجتاز منه السور الذى طوله ٣٥٠٠ متر وفيه عدة أبراج.

وقالوا أن فرديناند وإيزابيلا الكاثوليكية عنيا كل العناية بالحمراء لما اغتنما فرصة اختلاف العرب وأمرائهم وعزما على إخراج جميع العرب من إسبانيا وقد أمرا بترميم نقوشها الداخلية ورمما جدرانها وكان شارلكان على شدة حرصه على آثار الحمراء والإبقاء عليها عمر مبانى ليخلد اسمه ولكنها لم تتم وأوردوا فى معرض البرهان على ولوعه بالآثار العربية ما نسب إليه من القول عندما وقع بصره على آثار الحمراء: بالشقاء من أضاع كل هذا.

جاء فى دائرة المعارف الإسلامية: وإذا ما وقع التنظير بين قصر الحمراء والقصور والجوامع التى بنيت على ذاك العهد فى القاهرة مثلا كجامع السلطان حسن الذى بنى سنة ١٣٥٦ م تبين الفرق العظيم بين البنائين فإنك ترى لهندسة جامع القاهرة أمثالا كثيرة فى حين بنى قصر الحمراء على غير محتذى

ولا يوجد فى مملكة من الممالك قصر إسلامى مثل الحمراء وبقدمه لم يبن له شبيه مع أنه شيد بمواد سريعة الانحلال اللهم إلا أبنية العصر الأموى التى عثر عليها الباحثون فى بادية الشام شرقى بلاد موآب وبعض الخرائب من العصر العباسى فى سامراء والرقة.

وقصارى القول أن الحمراء مصيف تحف به حدائق واسعة ومتنزهات وفيه المياه الجارية والنبات والحيوان الكثير ونقوشه تبهر الأبصار وفى مسالك الأبصار: أن الحمراء كثيرة المبانى الضخمة والقصور ظريفة جدًا يجرى الماء تحت بلاط كما يجرى فى المدينة فلا يخلو منه مسجد ولا بيت وبأعلى برج منها عين ماء وجامعها من أبدع الجوامع حسنًا وأحسنها بناء وبه الثريات الفضية معلقة وبحائط محرابه أحجار ياقوت مرصعة فى جملة ما نمق به من الذهب والفضة ومنبره من العاج والأبنوس.

ولما استولى ملوك قشتالة على الحمراء سلموها إلى مهندسين من العرب بلغ من حذقهم أنك لا تعرف ما أدخلوه فيها من الإصلاح ولا تميزه عن الأصل الذى كانت عليه من قبل. ودام هذا الترميم فى الحمراء إلى ثورة العرب سنة ١٥٦٩ وفى سنة ١٥٢٢ أصيب بهزة أرضية وفى سنة ١٥٩٠ بحريق فى مطحنة بارود سببت خراب أقسام منها ثم تركت وشأنها فى القرن السابع عشر والثامن عشر وقد نسف جنود نابليون سنة ١٨١٢ قسمًا منها بالمواد الملتهبة معتبرين الحمراء حصنًا وذلك عند جلائهم عن إسبانيا ثم أخذت همة حكومة إسبانيا تتجدد لإعادة الحمراء إلى حالتها الأولى.

ويقول جوسيه أن ملوك إسبانيا لما دخلوا الحمراء لم يعاملوا آثار خصومهم معاملة أعداء بل معاملة أصحاب. وبعد أن ذكر كيف كانوا

يتعهدونها وكيف عهدوا إلى مهندسين من العـرب استخدموهم لترميمها قال: وأهملت الحمـراء من بدء القرن السـابع عشر إلى أواسط الـقرن الثامن عـشر فأخذ يسكنها جنود بيـاطرة وأرباب حرب وحاكة وفاخرانيون وأسـرات فقيرة فكانت الأوساخ فيهـا وفى جدرانها والناس يعبثون بما فيـها وبما أصابها شيء من البارود والـقذائف فتـبدلت مـحاسنهـا وبليت بعض حيطانهـا ونقوشـها ورسومـها ومعالمهـا ثم صحت نية حكومـة إسبانيـا على تعهد تلك القـصور وإرجاعـها إلى حالهـا وكانت الهمـة فى هذا الشأن تفـتر ثم تتجـدد بحسب سلطان ملوك إسبانيا ودرجتم من العقل والفهم.

وفى هذا القصر أو المدينة البـديعة ما عدا الآثار العربية قـصر شارلكان أراد أن يوسع به دائرته سنة ١٥٢٦ بنـاه من الجزية التى كـان يتـقاضـاها من العرب للسماح لهم بإجراء بعض شعـائرهم. من أعمال شارلكان أبنية لم تتم لقلة المال فـيما يظهـر والغالب أنه حـاول بما أنشأه من الأبنيـة أن يطمس آثار العرب ليجعل لبـنائه الرجحان فلم يتم له ما أراد وبقيت الحمـراء أجمل مثال فى القصور على مر العصور والدهور.

وليس فى الحمراء من الفرش والأوانى الباقية من عهد العرب سوى جرة طولها أكثر من متـر صنعت من تراب بالميناء ولها لمعان لازوردى وذهبى رسم عليها حيوانات ونقوش عربية وهى من صنع معامل غرناطة فى القديم.

هذه صورة مصغرة من وصف هذا القـصر وما طرأ عليه إلى يومنا هذا وهو مقصد السائحين من أهل الأرض. وكأن ابن حمديس وصفه إذ قال:

قـصر يقـصر وهو غـير مـقصـر ... عن وصفـه فى الحين والإحـسان

وكـأنـه من درة شـفـافـة ... تعـشى العـيون بـشدة اللمـعـان

لا يرتقى الراقى إلى شرفاته ... إلا بمعراج من اللحظان

عرج بأرض الناصرية كى ترى ... شرف المكان وقدرة الإمكان

فى جنة غناء فردوسية ... خفوفة بالروح والريحان

وتوقدت بالجمر من تاريخها ... فكأنما خلقت من النيران

وكأنهن كرات تبر أحمر ... جعلت ثواجهها من القضبان

إن فاخر الأترج قال له ازدجر ... حتى تجوز طبائع الأيمان

لى نفحة المحبوب يشمنى ... طيبًا ولوم الصب حين ترانى

منى المصبغ حين يبسط كفه ... فبنان كل خريدة كبنانى

والماء منه سبائك فضية ... ذابت على درجات شاذروان

وكأنما سيف هناك مشطب ... ألقته يوم الحرب كف جبان

كم شاخص فيه يطيل تعجبًا ... من دوحة نبتت من العقيان

عجبًا لها تسقى الرياض ينابعًا ... نبعت من الثمرات والأغصان

خصت بطائرة على فتن لها ... حسنت فأفرد حسنها من ثان

قس الطيور الخاشعات بلاغة ... وفصاحة من منطق وبيان

فإذا أتيح لها الكلام تكلمت ... بخرير ماء دائم الهملان

وكأن صانعها استبد بصنعة ... فخر الجماد بها على الحيوان

أوفت على حوض لها فكأنها ... منها إلى العجب العجاب روانى

فكأنها ظنت حلاوة مائها ... شهدًا فذاقته بكل لسان

وزرافة فى الجوف من أنبوبها ما يريك الجرى فى الطيران
مركوزة فى الرمح حيث ترى له من طعنة الحلق انعطاف سنان
وكأنها ترمى السماء ببندق مستنبط من لؤلؤ وجمان
لو عاد ذاك الماء نفطًا أحرقت فى الجو منه قميص كل عنان
فى بركة قامت على حافاتها أسد تذل لعزة السلطان
نزعت إلى ظلم النفوس نفوسها فلذلك انتزعت من الأبدان
وكأن برد الماء منها مطفئ نارًا مضرمة من العدوان
وكأنما الحيات من أفواهها يطرحن أنفسهن فى الغدران
وكأنما الحيتان إذ لم تختها أخذت من المنصور عقد أمان
كم مجلس يجرى السرور مسابقًا منه خيول اللهو فى ميدان
يجلو دماه على الخدود ملاحة فكأنه المحراب من غمدان
فسماؤه فى سمكها علوية وقبابه فلكية البنيان

* * *

الفصل

السابع عشر

كتابات الحمراء

تقرأ فى قصــر الحمراء كثيــرًا من الآيات والمواعظ والأشعار زبرت على الحجـر أو بالخص بالخط الأندلسى المشبك وهو أقرى إلى النسخ المتـعارف فى هذه البلاد الشرقــية منه بالخط المغربى ومما تقرأه علــى أحد الأبواب "أمر ببناء هذا الباب المسمى بباب الشريعة أسعد الله به شــريعة الإسلام كما جعله فخرًا باقيًــا على الأيام مولانا أمــير المسلمين السلطــان المجاهد العادل أبو الحــجاج يوسف ابن مولانا السلطان المجاهد المقــدس أبى الوليد ابن نصر كافى الله فى الإسلام صنائعــه الزاكية وتقــبل أعمالــه الجهادية فـشيد ذلك فى شــهر المولد المعظم من عام تسعة وأربعين وسبعمائة جعله الله عزة واقية وكتبه فى الأعمال الصالحة الباقية" .

ومنها «الملك الدائم والعــز القائم» ومنا «الحمد لله على نعــمة الإسلام» ومنها «عز لمولانا أى عبد الله» ومنها «ولا غالب إلا الله» ومنها «وما بكم من نعمة فمن الله» ومنها «النصر والتمكــين والفتح المبين لمولانا أبى عبد الله أمير المسلمين» ومنها «وما النصر إلا من عند الله العــزيز الحكيم» ومنها «فالله خير حافظًا وهو أرحم الراحمين» .

ومن الأبيــات التى رسمت على إحــدى القبــاب فى مدح أبى الحــجاج يوسف الأول:

تبـــارك من ولاك أمـر عـــبـاده ... فأولى بك الإســلام فضلا وأنعــما

فكم بلدة بالكفـر صبحــت أهلها ... وأمســيت فى إعمــارهم متــحكما

وطوقتهم طوق الأسار فـأصبحوا ... ببــابك يبنون القــصــور تخـدمـا

وفـتحت بالسـيف الجـزيرة عنوة ... ففــتحت بابًا كــان للنصر مــبهــما

* * *

ولو خـير الإســلام فـيمــا يريده ... لما اخــتــار إلا أن تعــيش وتسلمــا

إلى أن قال:

فــأمنت حتى من نــفخــة الصبــا ... وأرهبت حتى النجم فى كبـد السما

فإن رعــشت زهر النجوم فخيــفة ... وإن مال غصن البــان شكرك يمما

ومنها:

ومن قبلها استفتحت عشرين معقلا ... وصيــرت ما فيهــا لجيشك مــغنما

وكتب فى قاعة السفراء:

أنا مــــحـــلاة عـــروس ... ذات حـــســن وكـــمــــال

فـــانـظر الأبريق تـعـــرف ... فـضل صـــدقى فى مـقـــالى

واعــتـــبـــر تاجــى تجــده ... مـــشــبــهًــا تاج الهـــلال

وابـن شـــــــمس فلـك ... فى ضـــيـــاء وجـــمـــال

دام فى رفــــعـــة شـــأن ... آمـــنًـــا وقـــت الـــزوال

وكتب أيضًا:

وحكيت كرسى العروس وزدته ... إنى ضمنت سعادة الأزواج

من جاء يشكو الظماء فموردى ... صرف الزلال العذب دون مزاج

فكأننى قوس الغمام إذا بدا ... والشمس مولانا أبو الحجاج

لا زال محروس المثابة ما غدا ... بيت الإله مثابة الحجاج

وكتب على القبة:

تحييك منى حين تصبح أو تمسى ... ثغور المنى واليمن والسعد والإنس

هى القبة العليا ونحن بناتها ... ولكن لى التفضيل والعز فى جنسى

جوارح كنت القلب لا شك بينها ... وفى القلب تبدو قوة الروح والنفس

وإن كان أشكالى بروج سمائها ... ففى عدا ما بينها شرب الشمس

ومما كتب أيضًا على بركة صحن الأسود وهو من نظم الوزير أبى عبد الله محمد بن يوسف بن زمرك تلميذ لسان الدين ابن الخطيب:

تبارك من أعطى الإمام محمدًا ... مغانى زانت بالجمال المغانيا

وإلا فهذا الروض فيه بدائع ... أبى الله أن يلفى لها الحسن ثانيا

ومنحوتة من لؤلؤ شف نورها ... تحلى بمرفض الجمان النواحيا

يذوب لجين سال بين جواهر ... غدا مثلها فى الحسن أبيض صافيا

تشابه جار للعيون بجامد ... فلم ندر أيا منهما كان جاريا

ألم تر أن الماء تجرى بصفحها ... ولكنها مدت عليه المجاريا

كـمثل مـحب فاض بالدمع جـفنه / وغيض ذاك الدمع إذ خـاف واشيا
وهل هى فى التحقيق غـير غمامة / تفيض إلى الآسـاد منها السواقـيا
وقد شبهت كف الخـليفة إذ غدت / تفـيض إلى أسـد الجهـاد الأياديا
فـيا من رأى الآسـاد وهى روابض / عـداها الحيـاعن أن تكون عـواديا
ويا وارث الأنصـار لاعـن كـلالة / تراث جـلال تسـتخف الـرواسيـا
عليك سـلام اللـه فـاسلم مـخلدًا / تجـــدد أعـــيـادًا وتـبلى أعـــاديا

ومما كتب فى إحدى القاعات أيضًا من نظم الوزير ابن زمرك:

أنا الروض قد أصبحت بالحسن حاليا / تأمل جمـالى تستفد شـرح حاليا
أباهى من المولى الإمـام مـحـمـد / بأكرم من يأتـى ومن كان ماضـيا
ولله مـــبناه الجـــمـــيـل فـــإنه / يفـوق على حكم السعـود المبانيـا
فكم فـــيـه للإبصـار من مـــتنزه / تجـد به (؟) نفس الحليم الأمانيـا
تبـيت له خـمس الثـريا مـعـيـذة / ويصـبح مـعـتـل النواسم راقـيـا
به القـــبـــة الغـــراء قل نظيـــرها / ترى الحسـن فيهـا مسـتكينًا وباديا
تمد لهـــا الجـوزاء كف مـــصـــاخ / ويدنو لهـا بدر السـمـاء مناحـيـا
تهوى النـجوم الزهر لو ثبـتت بها / ولـم تك فى أفق السـماء جـواريا
ولو مثلت فى سـاحتيهـا وسابقت / إلى خـدمة ترضيـه منها الجـواريا
ولا عجب إن فـاقت الشهب فى العلى / وإن جـاوزت فيـها المدى المتناهيـا
فـبين يدى مـولاى قـامت لخدمـة / ومن خدم الأعلى اسـتفاد المعـاليا

بها البهـو قد حاز البهـاء وقد غدا   به القـصر آفـاق السـماء مـباهيـا
وكم حلة قــد جللتـه بحلـيـهـا   من الوشى تنسى السابرى اليـمانيا
وكم من قــسى فى ذراه ترفــعت   على عـمـد بالنور بانت حـواليـا
فتـحسـبها الأفـلاك دارت نسيـها   تظل عـمود الصـفح إذ لاح باديا
سـوارى قـد جاءت بكل غـريبـة   فطارت بها الأمـثال تجـرى سواريا
به المرمـر المجلـو قـد شـفت نوره   فيجـد من الظلماء ما كـان داحيا
إذا مـا أضاءت بالشـعـاع تخالهـا   على عظم الأجــرام منهـا لآليـا
فلم تر قــصــر منه أنعم نضــرة   واعطر أرجـاء وأحلـى مـجـانيـا
مـصـارفــه النقـدين منه بمـثلهـا   أجاز بها قـاضى الجمال التقـاضيا
فإن كلأت كف النسيم مع الضحى   دراهم نور ظل عـنهـا مـكافـيــا
فيملأ حجر الروض حول غصونها   دنانير شـمس تترك الروض حـاليا

ومن الأبيات المزبورة:

وجـاد بهـا برد الهـواء نسـيمـهـا   فصـحت هواء والنسيم قد اعـتلا
وقد حـزت من كل المحاسن غـاية   تقبس عنها الشهب فى الأفق الأعلا
وإنى بهــذا الروض عـين قــريرة   وإنسان تلك العيــن حقًا هو المولى

وفى الأندلس إلى اليوم على كثرة ما انتاب مصانعها وقلاعها ومدارسها وتربها وجسورها وسدودها من التخريب لا تزال ترى بعض كتابات من النظم والنثر وبعـضها مثال البـلاغة والفصاحـة لأن الأندلسيين عاشوا وتـنعموا فى أرض معتدلة الهواء جميلة الطبيعة فلا بدع أن جادت القرائح على تلك النسبة وظهرت فى كتابهم وشعرائهم آثار الإبداع والإعجاب.

الفصل
الثامن عشر
ذكرى مؤلمة

مـضت أعوام تلتـها أعـوام، والنفس تتـحدث بالارتحـال إلى الأندلس المحبوبة، تستنفض معـالمها، وتستبطن معاهدها ومصانعهـا، فتتدبر، وتدكر، وتستفيد، وتفيد. ولما أتاحت لهـا الأقدار، بلوغ تلك الأمصار، عرض لها ما كدر صـفو تلك الذكرى، ذكرى التطواف فـى الأندلس بعد عزها للاعتـبار، بالدمى والأحجار، واسـتنطاق الآثار، واستقراء الأخبار، لمعـرفة عمل العرب فى تلك الديار.

اتفق نزولى غرناطة فى اليوم الثانى من كـانون الثانى، اليوم الذى خرج فيـه أبو عـبد الله آخـر ملوك بنى الأحمـر من عاصـمة الأندلس، وانتـقلت أحكامها إلى أيدى الغالبين من الإسبـانيين، والجرس يدوى فى كنيسة الحمراء دويًا متواصلا لا متـساوقًا مدة أربع وعشرين ساعة، احـتفالا بهذا اليوم الذى يعده أهل إسـبانيـا عامة وسكان غـرناطة من بينهم خاصـة من أسعـد أيامهم الغر. احتـفلوا به ضروب الاحتفال، ومن جملة مظاهر سـرورهم مأدبة أدبها يومئذ شيخ مدينة غرناطة فى النزل الذى حللـته فى جوار الحمراء واسمه نزل «واشنطون» على اسم واشنطون محرر أميركا الشمالية وقد حضر المأدبة عظماء المدينة وشربوا وطـربوا على ذكر استـيلاء أجدادهم علـى آخر أرض احتلتـها العرب من شبه جزيرتهم.

تذكرت ذاك اليـوم المشؤوم، وقد رفع الصليب الـفضى على أعلى برج فى الحمراء إشـارة إلى ظفر الإسبان الأخيـر وخروج العرب من هذه الديار،

وقد أخذ أبو عبد الله بن الأحـمر يتحفز فى حاشيته ليـخرج من الحمراء قبل أن يبغته العدو فيها، ويتلفت وهو يجتاز جبل الثلج إلى غرناطة البديعة فيتنهد ويبكى، وأمه ترافقه وتقول له: لا تبك كالنساء ملكًا لم تستطع أن تحافظ عليه كالرجال.

كل سنة يبالغ القوم هنا بعيد غرنـاطة السنوى وقد احتفلوا به حتى اليوم أربعمائة وثلاثين سنة يتذكرون كل مـرة نصرتهم على أعدائهم ويومًا تمت لهم فيه وحدتهم القومـية والدينية، وقد مثلوا فظع مأساة ارتكبتها أنفـس متعصبة جاهلة، وسلكوا للخلاص من مخالفيهم طرقًا بشعة، لم يسلكها هؤلاء معهم يوم استصفوا أرضهم وحلوا دياراتهم، وهم فى رفـعة ومنعة، وغبطة وسعة. يحشدون يوم الحفل رجالهم ونساءهم وذراريهم يحفزون أرواحهم ليوقظوها، ويهيجون كوامن الصدور ليعتـبروا بما وقع لهم فى سالف العصور وليعلموهم أن غلبة سنة ١٤٩٢ وإن كانت من باب تسلـط الجهل على العلم إلا أنها دلت على أن الثأر لا ينسى ولو بعد ثمانية قرون.

وما كان أجـدر بالعرب أن يعدوا آخر يم خرجـوا فيه من الأندلس من أيام البؤس، المشـتملة بالحزن، المملوءة بالاسـتعبار، يـتناشدون فيه التـعازى والمراثى، ويتطارحون حديث محنة مضـت، وتذكارها المؤلم لم يبرح يتجدد، وشرر شرها لم يزل يتولد ويتوالد.

قيل أن أناسًا من جالية الأندلس فى بر العـدوة ما برحوا إلى اليوم وقد أنقضـتت أربعة قـرون على مغـادرتهم بلدًا نبت لهم فيـه العز، وأثمـر المجد والسعـد، ويخلف الوالد منهم لنبـيه فى جـملة مخلفـاته، مفـاتيح داره فى الأندلس على أمل أن يعود أولاده إليها ذات يوم ويفـتحوها وينزلوها. تذكار

أن عدة بعضهم فى باب الهزل، فى سجل المستحيلات يحوى ولا جرم فى مطاويه أجمل العظات، وأعظم التذكارات.

وحقيق بكل بلد للعرب فقد استقلاله أن يقيم كل سنة المآتم على ما حل به خصوصًا فى البلاد التى يعبث فيها المتغلبون بمشخصات المغلوبين فإن بعض العناصر الأوروبية كالإسبان لم يكتفوا بطرد العرب من بلادهم بل يحاولون اليوم فى الريف من بلاد مراكش أن يجلوهم عنها بعد أن تأصلت كلمتهم فيها منذ ثلاثة عشر قرنًا أقاموا خلالها مدنيات وأنشأوا أمجادًا لهم ودولات.

إن العرب الذين أنشأوا من العدو مدينة الأندلس وقاموا فى عصور الظلمات بأعمال لا يكاد يصدق الناظر إليها أنها بنت قرائحهم، وثمرة عقولهم، لو لم تتناصر على ذلك أصدق الروايات، لا يعجزهم اليوم، والعصر عصر النور، إن يقوموا بمثل ما عمله أجدادهم، لو نفس خناقهم، وملكوا زمنًا قياد أنفسهم. بعض أهل الغرب اليوم حرب عليالشرق وسوف تكون لهذا الغلبة للاحتفاظ بدياره وآثاره، وأمامه إسبانيا والبرتغال اللتان ثأرتا لنفسهما من مستعبديهما بعد قرون ولم تكونا فى رقى العرب اليوم عددًا وعددًا، ومضاء وغناء.

أضعف أمة فى الغرب لا يبلغ عدد أهلها عدد أهل إقليم واحد من أقاليم العرب أو قطر من أقطارهم تتناغى الليل والنهار بآثارها وتتحدث بمفاخر أجدادها وتقدس أعمال نوابغها ورجالها ولا تتسنى يدًا للمحسن إليها، ولا إساءة مجرم جان عليها، العرب توغلوا يوم اشتد سلطانهم فى جنوبى أوروبى ونشأت لهم حكومات فى شبه جزيرة أيبيريا وجزيرة صقلية وسردانية

فارتكبوا بــذلك جناية فى عرف أهل تلك الديار، أفليس من العدل أن تغــتفر لهم هذه الهفوة أو الغزوة، فى جانب مــا حملوه إلى من غلبوهم من ضروب المعــارف والصناعات، ومــستــحسن الآداب والأخــلاق. العرب حــملوا إلى الأندلس حضارة رائقــة، ونظامًا محكمًا، أحلوها مــحل الفوضى والتوحش، والسخافات والخرافات.

تود كل أمة اليــوم مهما بلغ من تراجع الحــضارة بينها أن تحكم نفــسها بنفســها وتمثل مشخــصاتها ومقــدساتها، فهلل ينال العــرب هذه الأمنية وهم ليــسوا دون بعض الأمم الأوروبيــة التى أخــذت تتمــتع الواحدة تلو الأخــرى باســتقــلالها منذ قــرن من الزمن فليس كل أمم أوروبا بحــضارتهم الإنكليــز والألمان والفرنسيين ولا كل الــشعوب العربية على مستــوى واحد فى الحضارة والنور.



الفصل
التاسع عشر
جلاء المسلمين
وتنصيرهم

لما استــولى العرب المسلمون على الأندلس لــم يكرهوا أحدًا من سكان البلاد الأصليــين على الدخول فى دينهم، بل أظهــروا التسامح المقــبول الذى يأمرهم به الدين الحنيف، وأطلقوا للناس حريتــهم فى ذلك، فكان الإسبانيين يدينون بالإسلام برضاهم.

فعهد الــعرب إذًا فى الأندلس كان عهد تسامح وحــرية، لم تعهده من قبل ولا من بعــد ولم يمنع عن بث الدين المسيحى إلا دعــاته المفرطون، ممن كانوا يقفون على أبواب المساجد والجوامع، ويدعون المسلمين إلى دينهم، ولا جوزوا أخذ مال أحد من أهل ذمتهم بل اكــتفوا بجزية بسيطة، وساووهم فى جميع الأمور بأنفسهم.

مثال من لــطف الحكم تعلمه الفاتحون من كــتابهم فلم يحيدوا عــنه قيد غلوة، وهم فى عز سلطانهم، والقول الفــصل فى الأرض كلها لهم ولقومهم مدة قرون طويلة.

هكذا فعل العــرب فى إبان قوتهم، فانظر ماذا صنع الإســبان يوم قوى سلطانهم وكيف عاملوا العرب نقلا عن شاهد العيان قال:

لما استولى صاحب قشتالة عــلى مدينة بلش عام اثنين وتسعين وثمانمائة ودخلت فى ذمتــه جميع القرى التى تلــى بلش وقرى جبل منتمــيس وحصن قمارش خرج أهل بلش من بلدهم مؤمنين، وحملوا ما قدروا على حمله من

أموالهم فمنهم من جوزه العدو إلى أرض العدوة ومنهم من أقام فى بعض تلك القرى ومنهم من صار إلى أرض المسلمين التى بقيت بالأندلس.

ولما استولى الغالبون على مدينة مالقة وبلش وجميع الجهات لم يبق للمسلمين فى تلك الناحية ملجأ. وفى عام ثلاثة وتسعين وثمانمائة خرج العدو نحو حصون الشرقية وكانت فى صلحة فاستولى على تلك الحصون كلها وفى سنة ٨٩٤ خرج نحو حصن موجر فاستولى عليه وعلى الحصون القريبة منه ومن مدينة بسطة.

وكان صاحب قشتالة كثيراً ما يستعين بالمرتدين والمدجنين على قتال المسلمين يدلونه على عوراتهم، ولطالما أمر بهدم المدن والقرى التى يستولى عليها يبنى بأنقاضها مسورات فى بضعة أيام كما فعل فى غرناطة. ومن جملة الشروط التى شرط أهل غرناطة على ملك قشتالة أن يؤمنهم فى أنفسهم ونسائهم وصبيانهم ومواشيهم ورباعهم وجناتهم ومحارثهم وجميع ما بأيديهم ولا يغرمون إلا الزكاة والعشر لمن أراد الإقامة ببلدة غرناطة. ومن أراد الخروج منها يبيع أصله بما يرضاه من الثمن لمن يريده من النصارى والمسلمين من غير غبن، ومن أراد الجواز لبلاد العدوة بالغرب يبيع أصله، ويحمل أمتعته، ويحمله فى مراكبه إلى أى أرض أراد من بلاد المسلمين من غير كراء ولا شىء يلزمه لمدة ثلاث سنين، ومن أراد الإقامة من المسلمين بغرناطة فله الأمان على نحو ما ذكر وكتب لهم بذلك كتابًا، وأخذ عليه ههودًا ومواثيق فى دينه مغلظة. وبعد ذلك أخلى المسلمون مدينة الحمراء كما خلوا غرناطة ودخلها الإسبانيون. ولما سمع أهل البشرة أن أهل غرناطة دخلت تحت ذمة النصارى أرسلوا بيعتهم إلى ملك الروم ودخلوا فى بيعته فلم يبق للمسلمين موضع بالأندلس.

ولقد سرح صاحب قشتالة للمسلمين بالجواز إلى الساحل فصار كل من أراد الجواز ببـيع ماله ورباعه ودوره فكان الواحـد يبيع الدار الكبيرة الواسـعة المعتبرة بالثمن القليل وكذلك يـبيع جنانه وأرض حرثه وكرمه وفدانه بأقل من ثمن الغلة التى كانت فـيه فمنهم من اشـتراه منه المسلمون الذين عـزموا على الدجن ومنهم من اشتراه منه الـنصارى وكذلك جميع الحوائج والأمـتعة ومن المسلمـين من ظلموا فى عناية ملك النصـارى بهم فاشـتروا أمـوالا رخيـصة وأمتعة وعزموا على المقام فى الأندلس.

ثم إن الملك أمر الأميـر محمد بن على بالانصـراف ن غرناطة إلى قرية أندرش من قرى البشرة فـارتحل بعياله وحشمه وأمـواله وأتباعه ثم ظهر له أن يصرفـه فبعث للمـراكب تأتى لمرسى عذرة واجتمـع معه خلق كثـير ممن أراد الجواز فركب الأمير محمـد ومن معه فى تلك المراكب حتى نزلوا مدينة مليلة ففاس من عدوة المغرب.

وأخـذ ملك الإسبـان بعد حـين ينقض الشـروط التى اشتـرطها عليـه المسلمون، وشرع يفرض عليـهم الفروض، وثقلت عليهم المغارم، وقطع لهم الأذان، وأمرهم بالخـروج من مدينة غرناطة إلى الأرباض والقـرى وبعد ذلك دعاهم إلى التنصر وأكرههم عليه وذلك سـنة أربع وتسعمائة فدخلوا فى دينه كرهًا وصارت الأندلس كلها نصـرانية. وامتنع بعض أهل الأندلس من التنصر كأهل قـرية ونجر والبـشرة وأندرش وبلـفيق فأحـاط بهم ملك قـشتالـة وقتل رجالهم وسبى نساءهم وأخذ صبيـانهم وسلب أموالهم ونصرهم واستعبدهم. وامتنع أناس فى غربى الأندلس من التنصر وانحـازوا إلى جبل وعر منيع فلما امتـنعوا عليـه وقاتلهم فلم ينل مـنهم منالا أعطاهم الأمان على أن يجـوزهم

لعدوة المغرب مؤمنين على أن لا يسرح لهم شيئًا من أموالهم غير الثياب التى كانت عليهم وجوزهم لعدوة المغرب كما شرطوا ولم تقم للإسلام والمسلمين بعد ذلك قائمة.

قال السلاوى: التزم أهل غرناطة طاعة صاحب قشتالة لما استولى عليها سنة سبع وتسعين وثمانمائة والبقاء تحت حكمه ولما نقض الشروط وهى سبعة وستون شرطًا عروة عروة ومنها شريعة المسلمين على ما كانت ولا يحكم على أحد منهم إلا بشريعتهم وأن تبقى المساجد كما كانت والأوقاف كذلك إلى أن آل الحال لحملهم على التنصر فتنصروا عن آخرهم بادية وحاضرة وكان أهل الأندلس كثيرًا ما يهاجرون إلى بلاد الإسلام غير أن عامتهم كانوا قد تخلقوا بأخلاق العجم (غير العرب من الإسبان) وأثر فيهم ذلك أثرًا ظاهرًا لطول صحبتهم لهم ونشأة أعقابهم بين أظهرهم إلى أن كانت سنة ست عشرة وألف فهاجر جميع من لم يتنصر منهم إلى بلاد المغرب وغيرها وفى خلال ذلك منع العرب من التكلم بالعربية[١].

---

(١) لما انقرضت دولة العرب وبقى بعضهم فيها حافظوا على دينهم مع شدة الاضطهاد ولكنهم نسوا أو ألزموا بإهمال اللغة العربية وصارت اللغة القشتالية أى الإسبانية ملكة متوارثة فيهم فكتبوا علومهم بها لكن بحروف عربية وسموها (الخميادو = Aljamiado) ووجه التسمية أن العرب يسمون كل ما ليس بعزبى أعجميًا وجرى على منوالهم الأندلسيون فكانوا يسمون اللغة القشتالية أى الإسبانية باسم "الأعجمية" ثم انتقلت هذه اللفظة إلى اللغة الإسبانية بغير حرف العين لعدم وجود ما يقابله فى اللغات الإفرنجية فصارت الكلمة مقابل هذا الصوت (الاجاميا) ولما كان أهل إسبانيا يقلبون أغلب الجيمات خا آت قالوا (الاخاميا) أو (الخميا) ورسموها بحروفهم هكذا بعد أن سكنوا حركة اللام (Alj amia) وعلامة النسبة=

قال المقرى: كـان النصارى بالأندلس قد شددوا على المسلـمين بها فى التنصر حتى أنهم أحرقوا منهم كثـيرًا بسبب ذلك ومنعوهم من حمل السكين الصغيـر فضلا عن غيـرها من الحديد وقاموا فى بعض الجبـال على النصارى مرارًا ولـم يقيض الله لهم ناصـرًا إلى أن كان إخـراج النصارى إياهـم أعوام سبعة عـشر وألف فخرجت ألوف بفاس وألوف أخر بتـلمسان ووهران وخرج جمـهورهم بتـونس وخرج طوائف بـتطاوين وسلا والجـزائر وعمـروا القرى واغتبط بهم الناس وتعلمـوا حرفهم وقلدوا ترفهم[1] ووصل جماعة منهم إلى القسطنطينية وإلى مصر الشام وغيرها من بلاد الإسلام.

هذا مـا رواه مؤرخـو العرب وإليك مـا قاله مـؤرخو الإفـرنج فى هذه

=عندهم do توضع فى آخر الكلمة فلذلك قالوا (Aljamiado) أى الأعجمى. (السفر إلى المؤتمر).

(١) قال ابن أبى دينار أن المهـاجرين من الأندلس إلى تونس سنة ١٠١٧ - ١٠١٨ هـ كانوا خلقًا كثيرًا فأوسع لهم عثمان داى فى البلاد وفرق ضعفاءهم على الناس وأذن لهم أن يعمروا حيث شاءوا فاشتروا الهناشيـر وبنوا فيها واتسعوا فى البلاد فعمرت بهم واستوطنوا فى عدة أمـاكن وبنوا أكثر من عشرين بلدًا فصـار لهم مدن عظيمة وغرسوا الأشجـار ومهدوا الطرقات بالكراريط للمسافـرين وصاروا يعدون من أهل البـلاد. وذكر الـسيـد حـسن حسنـى عبـد الوهاب من علمـاء تونس فى رسـالة بالأفرنسية ذكر فيها أصول التونسيين أنه دخل تونس فى القرنين ونصف القرن الذى انتـهى بها جـلاء العـرب عن الأندلس لا أقل من مائة ألـف أندلسى وأن الطبقـة المتمـدنة الغنية من الأندلسيـين نزلت مدينة تونس واختلطت بـأهلها وقلدهم ملوك بنى حفص فيها خطط القضاء والإدارة والتعليم.

الكارثة: جاء فى التاريخ العام للأفيس ورامبو: صحت النية سنة ١٦٠٩ على نفى العرب Les morisques وكانوا يؤلفون عنصرًا خاصًا عصى على التمثل ولم ينزل عن مشخصاته ومميزاته على كثرة ما بذل فيليب الثانى من الجهد فوقع الاتفاق على التذرع بكل ما يمكن لإهلاكهم فعمدت الحكومة إلى الخروج عن القانون بدعوى قيامها بما فيه سلامتها ولا نجاز وحدة إسبانيا وإنقاذ البلاد من أولئك المالفين سرًا للأتراك والإنجليز والفرنسيين على حين اشتدت شوكة قرصان البحر من البربر وهنرى الرابع يضع خططه السرية فحاذت إسبانيا العواقب وقام رئيس أساقفة بلنسية يدعو إلى طرد العرب مدعيًا أن منهم تسعين ألفًا يستطيعون حمل السلاح وإذا غار على إسبانيا عدوها تسوء حالها ويحرج موقعها. وإذ كان القشتالى كسلانًا فقيرًا كان يكره من العرب منافستهم الشديدة له التى أكسبتهم غنى بفضل اقتصادهم نادى رئيس الأساقفة أن مما يخشى منه أن يحتكر هؤلاء العرب جميع ثروتنا ويؤدوا بالمسيحيين إلى العدم والشقاء. وقال غيره أنهم يدخرون على الدوام وعملهم عبارة عن سرقتنا فهم الدودة التى تقرض إسبانيا.

وعلى هذا كان من التعصب الدينى أن قضى على العرب. ولما تعذر تنصيرهم رأوا أن الطريق الوحيد إلى الخلاص من خطرهم المادى والمعنوى يكون بطردهم فقوى نفوذ رجال الكهنوت على ممثلى طبقات الأشراف فى البلاد وكانت عقول هؤلاء أكثر استنارة يحرصون على الاحتفاظ بالعرب فى بلادهم لأنهم عاملون ينفعونهم بعلمهم ويدرون عليهم ريعًا كبيرًا فقاموا ينكرون الشدة التى ارتأى أن يعمد إليها المجلس والحبر نديم الملك فلم يلبث بقايا العرب فى بلنسية والأندلس ومرسية وقشتالة وأرغون وكتلون أن غربوا

(أيلول ١٦٠٩ تموز ١٦١٠) وحملوا إلى إفـريقية حيث هلك عـدد كبى منهم وثاروا أربعون ألفًـا منهم فاعتـصموا فى جبـال بلنسية قـذبحوا أو استعـبدوا ففـقدت إسبـانيا بهم على أقرب تقـدير من خمسـمائة إلى ستـمائة ألف من أحسن العاملين فى الزراعـة والصناعات وعجلت بذلك خرابهـا وبعملها هذا ابتاعت وحدتها الدينية بالثمن الغالى وفرح الرأى العام الإسبانى إذ ذاك بما تم فى هذا الشأن وعـدوه من أعظم الأعمال التى قامت فى عـهد ملكهم ومنهم من رأوه نعمة من السماء! وقال مـؤرخ إسبانى: يا لسعادة ملك توفق إلى أن يعمل هـذا العمل من طرد العرب. ولـكن الأمم خارج إسبـانيا عـدوا عمل الإسبانيـين من تغريب العرب جنونًا بل وصفه ريشلـيو بأنه أفظع عمل بربرى ذكره تاريخ القرون.

وفى التاريخ العـام أيضًا أن خـضوع العرب فى إسـبانيا قـد أقلق ملوك الكاثوليك[1] وفتح أمامـهم مسألة تطالوا إلى حلها بما عـهد فى عنصرهم من المضاء الوحشى وبما اشتهرت به قرون التدين من التعصب وعدم التسامح فرأوا أن بعض مئات الألـوف من الإسرائيليين والمسيـحيين يكثرون سـواد المخالفين وهم كثـير نسلهم لا يعلم ماذا يكون مـنهم. وهم على ما هم فيـه من النمو يعتنمون ويعـملون فاشتد القلق من قـوم يخالفون الإسبانيـين بحضارتهم بل يعجبـون بها ولهم ميول وعـقائد وعواطف تخالف مـا عليه الجمهـور فبدأوا بالإسرائيليين حتى أن مايكل لوكاس أعظم سـادات قشتالة ذبحه سكان حيان أمام المذبح فى الكنيسة سنة ١٤٧٣ لاتهامه بالعطف على الإسرائيليين.

---

(١) يريد ملوك إسبانيا فان ملك إسبانيا لا يزال إلى اليوم يدعى فى الرسميات صاحب العظمة الكاثوليكى:

Sa Majeste, Catholica

وكان مــن مذابح سنة ١٣٩٠ أن اضطرت ألوف من اليــهود فى مــعظم مدن قشتالة أن يتنصروا ومنهم من دام على نصرانيته ومنهم من رجع إلى دينه الأصلى أو كان ظاهره مــسيحيًــا وقلبه وعاداته إسرائيلى وعــاده. وكان منهم طبقة غنية محترمــة. وفى سنة ١٤٨١ وقع تخييرهم بين التنصر والجلاء فآثروا الثانى إلا أن ديوان التفتيش لم تأخذه بهم رحــمة كما لم يشفق على المسلمين سنة ١٤٩٢ فشــقوا عصا الطاعــة بما رأوه من تعصب الكردينال كســيمنس [(١)] الذى عمد إلــى تنصيرهم بأبشع الطرق من الحبس والشــدة وأخذ الأولاد ولما فرغ صبــرهم وعمدوا إلى السلاح نقض ما أعطوه من الشــروط يوم تسليمهم غرناطة ولئن فــضلوا أن يتنصروا على أن يخــجروا بلادهم فإنهــم لم يسلموا أيضًا واشتد ديوان التفتيش فى مراقــبتهم وكان الإسبانيون يرون فى عمل هذا الديوان الدينى سلامــة عنصرهم وسلامــة دينهم ولذلك كانوا شاكــرين لعمله مهما قسا وغرم.

وقــال ريناخ: لم تكتف إســبــانيا بمــا قامت به من المــظالم باسم الدين وإحراق البشر وقتلهم وتعذيبهم بل رأت أن توهم الناس أنه لا سبيل إلى قيام وحدتها إلا بنفى اليهود سنة ١٤٩٢ ونفى العرب (١٦٠٩) فسار مئات الألوف منهم يهجرون بلادهم وهلك منهم فى الطرق عشرات الألوف فحرمت إسبانيا من أحسن العاملين فيــها وفقدت تجارها الماهرين وأطباءها الحــاذقين وقد قتل فى إسبانيا وحدها بفعل ديوان التفتيش الدينى نحو مائة ألف إنسان على الأقل ونفى منها مليون ونصف وبذلك خربت مدنية تلك البلاد الجميلة.

---

(١) هو مــرشد ايزابيــلا الكاثوليكية ملكة قــشتــالة حكم إسبــانيا بعــد موت فــرديناند الكاثوليكى مات سنة ١٥١٧ وقــد كان من أعظم من قضوا على العرب ومــدنيتهم على ما مر بك فى الفصول السابقة.

وقال سيـديليو: كان طرد العرب من إسبـانيا من موجبت تأخـرها كما وقع لمدينة نانت يوم طرد منها من كـان مخالفًا للكثلكة فـأضر ذلك بالصناعة الفرنساوية وقد تمكن الكردينال كسيـمنس من تعوير جميع آثار المسلمين وأمر بإحراق ثمانين ألف مخطوط عربى فى ساحات غرناطة.

* * *

الفصل العشرون
سقوط
الأندلس

كان العرب فى الأندلس فى جهاد دائم مع أعدائهم منذ وطئ طارق بن زياد وموسى بن نصير أرضها، ورفعوا علم الأمويين على ربوعها، ودفعوا بأعدائهم إلى أقصى الشمال. يسكن الجلالقة وغيرهم إذا وجدوا العرب مستمسكين بعروة الوحدة، ومتى شاهدوا اختلاف أمور العرب أو آنسوا من بعضهم ميلا إليهم أو نزوعًا إلى الاحتماء بهم لينالوا من خصومهم يحملون حملات منكرة، ويقاتلون أعداءهم بكل ما فيهم من قوة ولذلك قلت غارات الإسبانيين والبرتغاليين على البلاد التى نزلها العرب على عهد دولة بنى أمية أوائل المائة الخامسة وإن كان الثوار لم ينقطعوا تمامًا فى الداخل عن مجاذبة الأمويين حبل السلطة.

ثم فسدت عصبية هذه الدولة من العرب واستولى ملوك الطوائف على الأندلس واقتبسوا خطتها وتنافسوا بينهم وتوزعوا ممالك الدولة وانتزا كل واحد منهم على ما كان فى ولايته وشمخ فأنفه وبلغهم شأن العجم مع الدولة العباسية فتقلبوا بألقاب الملك ولبسوا شارته واستبد كل واحد منهم بجانب من الأندلس ودعى نفسه ملكًا فتلقبوا بالناصر والمنصور والمعتمد والمعتضد والمظفر وأمثالها حتى نعى عليهم ابن شرف عملهم بقوله المأثور:

مما يزهدنى فى أرض أندلس	أسماء معتضد فيها ومعتمد
ألقاب مملكة فى غير موضعها	كالهر يحكى انتفاخًا صورة الأسد

أو كما قال ابن حزم: فضيحة لم يقع فى الدهر مثلها أربعة رجال فى مسافة ثلاثة أيام فى مثلها يسمى كل واحد منهم بأمير المؤمنين ويخطب لهم فى زمن واحد أحدهم فى إشبيلية والثانى بالجزيرة الخضراء والثالث بمالقة والرابع بسبتة. وأصبح العرب والبربر فى خصام مستديم والجميع فى خلاف مع أهل المغرب الأقصى من الجنوب وفى حروب مع بقايا الأمم الإسبانية والبرتغالية من الشمال والغرب.

سقطت الأندلس لتشتت أهواء أمرائها وأصبح بعضهم "ولا هم له سوى كأس يشربها وقينة تسمعه، ولهو يقطع به أيامه" واسترسلوا إلى اللذات، وركنوا إلى الراحات، وأغفلوا الأجناد، واحتجبوا عن الناس، ولم يعودوا ينظرون فى الملك، ومنهم من قتل كبار قواده، ووسد الأمو إلى الضعاف، فكثرت المظالم والمغارم، وكثر الثوار مرات بشرق الأندلس وغربها من القضاة وغيرهم، وهكذا تبدد شمل الجماعة «فضبط أشراف العمالات أزمة أمورهم، وركبوا ظهور غرورهم، فأتوا من ذلك بكل شنيعة».

قال ابن حزم: كانت طرطوش وسرقسطة وأفراغه ولاردة وقلعة أيوب فى يد بنى هود وبلنسية فى يد عبد الملك بن عبد العزيز والثغراى ما فوق طليطلة من جهة الشمال فى يد بنى رزين وطليطلة فى يد بنى ذى النون وقرطبة فى أيدى أبناء جهور وإشبيلية فى يد بنى عباد ومالقة والجزيرة فى يد بنى برزال من البربر وألمرية فى يد زهير العامى ثم ابن صمادح ودانية وأعمالها والجزائر الشرقية (الباليار) فى يد مجاهد العامرى وبطليوس ويابرة وشنتين ولشبونة فى يد بنى الأفطس وأصبح امرئ وما اختار من الألقاب والأسماء حتى أن المستعين لما جلس على عرش الخلافة قال للناس أجمعين:

ارتعوا كيف شئتم، وارتسموا بما أحببتم من الخطط، فتسمى بالوزارة فى أيامه منفـردة ومـثناة (أى الوزير وذى الوزارتيـن) أراذل الدائرة، وأخـابث النظار، فضلا عن زعانف الكتاب والخدمة.

قسمت الأندلس بعد سقوط الأمويين، إلى تسع عشرة مملكة منها قرطبة وإشبيليـة وجيان وقرمـونة والغرب والجزيرة الخضـراء ومرسية وبلنسـية ودانية وطرطوشة ولاردة وسـرقسطة وطليطلة وباجـة ولشبونـة وغيرها. ولقـد كان يخشى بعـد هذا التفرق وتراجع أمـر الدولة الأموية أن تسقط الأندلس دفـعة واحدة ولكن قدر الله أن يكون ملوك الجلالقة وقشتالة وغيرهم مشتتة كلمتهم متفرقة أهواؤهم وقيض للبـلاد دولة أخرى جديدة قوية جاءتها من الجنول أى من المغرب الأقـصى وهى دولة المرابطين فأفـرج بها عن العـرب بعض الفرج فجاء يوسف بن تاشفين وقاتل الأدفنش سنة ٤٨٠ وانتصر عليه وكانت البلاد إلى البوار بسبب استيلاء النصارى عليها وأخذهم الإتاوة من ملوكها قاطبة.

ثم عـادت أحوال الأندلس فـاختلت اخـتلالا مـفرطًا آخـر دولة أميـر المسلمـين على بن يوسف أوجب ذلك «تخـاذل المرابطين وتواكلهم، ومـيلهم إلى الدعةن وإيثـارهم الراحة، وطاعـتهم النسـاء، فهانوا علـى أهل الجزيرة، وقلوا فى أعـينهم، واجترأ عـليهم العدو، فـاستـولى على كثـير من الثـغور المجاورة لبـلادهم». حتى جـاء الموحدون كمـا كان المرابطون من قـبل بدعوة عقلاء الأندلس وأمرائهـا وقد كانوا يدعونهم إلى نصرتهم بضـروب الفصاحة من الشعر والنثر ويستنفرون الناس من العدوة.

لما اشتـد الحصـار على أهل إشبـيلية سنة ٦٤٥ صنع إبراهيم بـن سهل الإسرائيلى قصيدة يستنفر بهـا الغزاة من العدوة ويستنصر بأمراء العرب وذلك إذ كان العدو عليها قال فيها:

يا معشر العرب الذين توارثوا ‏ أنتم أحق بنصر دين نبيكم
أن الإله قد اشترى أرواحكم ‏ بيعوا ويهنئكم وفاء المشترى
شيم الحمية كابرًا عن كابر ‏ وبكم تمهد فى قديم الأعصر

إلى أن قال:

والخيل تضجر فى المرابط عرة ‏ ألا تجوس حريم رهط الأصفر
كم نكروا من معلم، كم دمروا ‏ من معشر، كم غيروا من مشعر
كم أبطلوا سنن النبى، وعطلوا ‏ من حلية التوحيد صهوة منبر

إلى أن قال:

عند الخطوب النكر يبدو فضلكم ‏ والنار تخبر عن ذكاء العنبر
لو صور الإسلام شخصًا جاءكم ‏ عمدًا بنفس الوامق المتحير
ولو أنه نادى النصير لخصكم ‏ ودعائكم يا أسرتى يا معشرى

نعم كانت التفرقة بين أمراء العرب فى الأندلس مما علم أعداءهم كيف يتحدون ليدفعوهم عن أرضهم كما وقع للعرب فى صقلية سنة ٤١٣ فإنهم بعد أن دافعوا عنها جيوش البيزنطيين والنورمانديين والروسيين والفاكريكيين قسموا صقلية إلى إمارات صغرى فأنشأوا جمهورية فى بلرم وأخرى فى سرقوزة وكان ذلك من أكبر الدواعى فى زوال سلطانهم. لا جرم أن ضعف الوازعين الدينى والمدنى من ميل القوم إلى الراحة والدعة وضعف الأخلاق الحربية فيهم وانتشار الفوضى فى أحكامهم كان منه أن تأذن الله بذهاب ريحهم لا كما يدعى بعض العامة من أن رواج سوق الشعر كان السبب فى

زوال الأندلس وتبديد شمل أهلها فقد كـان الشعر عندهم من جملة المسليات لأن للعرب عامة غرامًا به والأدب وسـيلة إلى العلوم كافة والعرب أمة أولعت منذ عرف تاريخها بالفصاحة والبلاغة.

ومن تدبر سير الحروب بين العرب والإسـبان والبرتغاليين فى المدة التى ارتفـعت فيـها أعلام المسـلمين على الأندلس يدرك أن القـوتين قوة الغـالب والمغلوب كانت متـعادلة فى أكثر الأيام ولكن تكتب الغلبـة للفريق الذى كان جنده منظمًا أحسن من جند خصمه وكان بعض خلفاء الأندلس يعتمدون على جنودهم من الرقيق كالصقالبة وغيرهم ويعفون رعاياهم من التجنيد على حين كان زعمـاء الإسبان يصرفـون أيام شبابهم فى تعلم الضـرب بالسيف والرمح لقتـال أعدائهم[1] والعرب لا يجـوزون أن يستبدلـوا العادات الحربية بأعـمال الزراعـة وما فى المدنيـة الراقـية من التـمـتع والهناء فكان الناس فى الممـالك النصـرانية يـضطرون إلى الخدمـة فى الجندية ويرافق الأشـراف ملوكـهم إلى الحرب مع أتباعهم.

---

(١) وصف لسان الدين أمه قشتالة بقوله: وحـال هذه الأمة غريب فى الحماية الممزوجة بالوفـاء والرقة، والاسـتهـانة بالنفوس فى سـبيل الحـميـة، عادة العـرب الأول. وأخـبارهم فى القـتال غـريبة من الاسـتـرجال، والزحف على الأقـدام، أميـرهم ومـأمورهم، والجـثو على الأرض، أو الدفن فـى التراب، والاسـتظهار فى حـال المحاربة ببعض الألحان المهـيجة، ورماتهم قسيهم عربيـة جافية، وكلهم فى دروع، ولا لجام عندهم، والتقهـقر مقدار الشبر ذنب عظيم وعار شنيع، ورمـاتهم يسبقون الخيل فى الطراد، وحالهم فى باب التحلى بالجواهر وكثرة آلات الفضة غريب اهـ.

أما العرب فـلا يخرج أحدهم إلا إلى الجهاد وإذا خرج فـيكون خروجه على الأغلب متكارهًا لمدة معـينة فكانت أوضاع الإسبان حربية مـحضة تكون لهم بها الغلبة فى القتال أما فى البـحر فكان العرب أشد بأسًا وأقوى أساطيل ولهم فى كل فـرصة من فـرص الأندلس سفن مـعدة وقـدا أقامـوا لهم دور صناعة فى ألمرية وطرطوشة وطرخونة وكانت معـامل إشبيلية وقرطاجنة تخرج كل سنة سفنًا جديدة تمخر فى عرض البحار.

استولى الملوك من بـنى الأحمر قرنين ونصف كمـا تقدم لنا الكلام فى ذلك وهم الذين استولوا على بـقايا مجد العرب بعد أن انـتصر سلطانهم سنة ٦٦٣ هـ على الفرنج واستـرجع منهم اثنين وثلاثين بلدًا من جملتها ومـرسية ثم عاد العدو وأخذ بمخنقهم ولكن لم ينـل منهم لاجتمع كلمتهم فى الداخل على الجملة ولما دب الهرم فى جسم دولتهم وقوى الإسبان باتحاد إيزابيلا ملكة قشتالة وفرناند ملك الأراغون أى باتحاد المملكتـين الرئيسيتين فى الشمال تأذن الله بفناء الأندلس فلم يبق أمـامهم إلا التـسليم والاسـتسلام وفى ذلـك كان هلاكهم وبوارهم.



الفصل
الحادى والعشرون
جبل طارق
وطنجة

كـان جـبل طارق الذى نسب إلى طـارق بن زياد فـاتح الأندلس وهو المكان الذى بلغه فى جـيشه أواخر المائـة الأولى بأيدى العرب مدة استـيلائهم على الأندلس فلمـا دالت دولتهـم عاد إلى الإسـبان ولبث فى حكمـهم إلى القرن الثامن عش واسـتولى الإنكليز عليه فى سنـة ١٧٠٤ واحتفظوا به رغم مـحاولة الإسـبان فى سنة ١٧٠٤ - ١٧٧٩ بمـعاضـدة الأسطول الفرنسـوى للاستـيلاء عليـه فلم يستطع الأسطولان الفـرنساوى والإسبـانى تخليص هذا الحصن من أيدى الإنجليز.

يعلو جـبل طارق عن سطح البـحر ٤٢٥ مـترًا وهومـتصل مع القـارة الأوروبية بسهل من الرمل فيه بطائح ويـشرف على المدينة. وقد جعل الإنجليز فيه قلعة شحنوها بالمدافع فجاءت من أحـصن ما فى العالم من الحصون. فهو فى الحقيـقة قطعة من أرض إسبانيا ولكنه إنجـليزى الحكم والنظام يشرف على البحرين المحـيط والمتوسط ويأخذ بمخنق السفن الغـادية والرائحة بين القارات الثلاث أوروبا وأميركا وإفريقية.

يبلغ سكان جبل طارق اليوم ٢٢ ألـفًا ما عدا الحاميـة الإنجليزية وأهلها مزيج من شعوب أوروبا وأمريكا وآسيا وإفريقية وكذلك أبنيتها مزيج من طراز الأبنية عند الأمم الكثـيرة واللغتان الشـائعتان هنا الإسبانيـة والإنكليزية. ولا يحق اليوم لغـير الإنجليزى التبـعة أن يقتنى ملكًا فى هذا المرفـأ الضيق النطاق ويراقب الأجانب فيه مراقبة شديدة والمدنـية كلها عبارة عن شارع واحد ضيق

بنى فى الغالب منذ قرنين وعلى مقربة من جزيرة طريف وهى أشبه بقلعة كبيرة مشرفة على البحر.

جئت جبل طارق من غرناطة وانتهيت بالجزيرة الخضراء آخر عمل إسبانيا والمسافة بين هذه الجزيرة وجبل طارق بضع دقائق يجتازها المجتاز على ظهر سفينة.

وعلى بضعة أميال من جبل طارق ترى مدينة طنجة قائمة على البحر فى بر العدوة من ثغور الغرب الأقصى وأول أرض إفريقية يقع نظر الخارج من القارة الأوروبية عليها فينتقل السائح انتقالا فجائيًا من مدنية راقية إلى مدنية مشعثة منحطة وليس بين القارتين الأوروبية والإفريقية إلا محاز صغير كان العرب يسمونه الزقاق.

اغتنمت فرصة انتظار الباخرة الإنكليزية التى تسافر من جبل طارق إلى مارسيليا فى يومين فزرت طنجة وطوفت فى أرجائها وسكانها اليوم نحو أربعين ألفًا فيهم كثير من الإسبانيين والبرتغاليين والفرنساويين وهى من المدن التى استعمرها الفينيقيون فيما مضى ولا تزال محتفظة بطرازها الشرقى على كثة ما تداول عليها من الأمم بعد الإسلام فقد استولى عليها البرتغاليون سنة ١٤٧١ م والإنجليز سنة ١٦٦٢ وحاصرها الفرنسيين سنة ١٨٤٤ وبقيت منذ ذاك الحين فى يد المراكشيين وهى الآن مشاع لكل الدول أو تحت حمايتهم ويتنازعها الفرنسيين والإسبان كما يتنازعون على السبق فى حماية بلاد الغرب الأقصى. ويقيم فيها كثر من معتمدى الدول والسلاطين المخلوعين من أمراء المسلمين فى الغرب الأقصى أمثال مولاى عبد العزيز ومولاى الحفيظ.

نعم إن المراكشيين ما زالوا فى هذا الثغر وما وراءه من البلدان على

تصلبهم فى عـاداتهم رغم التيار الشـديد الهاجم عليـهم من أوروبا وهم منها على ثلاث ساعات بحراً لا يفصلهم عنها إلا بحر الزقاق وبين طنجة والجزيرة الخضراء اثنا عشر مـيلا «وهو أضيق موضع فيه وأوسع موضع فـيه نحو عشر ميلا» قال الفقيه المرادى المتكلم القيروانى بعد خلاصه من بحر الزقاق ووصوله إلى مدينة سبتة:

سـمعت التـجـار وقد حـدثوا — بشـــدة أهوال بحـر الـزقـاق
فـــقلت لهم قـــربونى إليـــه — أنشـفـه من جـر يوم الفـراق
فلمـا فـعـلت جـرت أدمـعى — فـعاد كـمـا كان قـبل التـلاق

* * *

الفصل
الثانى والعشرون
علم المشرقيات
فى إسبانيا

كان على إسبانيا وتاريخها مرتبط بتاريخ العرب ثمانية قرون أن تكون أول دولة غربية تعنى باللغة العربية ولكنها تعد من الأواخ لأن الارتقاء يتبع بعضه بعضًا ولا تنفق أمة إلا مما عندها ومع هذا حدثنا التاريخ أن أول مدرسة[1] عربية أنشئت فى طليطلة أوائل القرن الحادى عشر ومن هذه المدرسة نشأت تربية الإسبانيين على مناحى العرب وفى سنة ١١٣٠ أنشأ رئيس أساقفة مدرسة للتراجمة فى هذه المدينة وبها رسخت اللغة العربية والأفكار العربية فى إسبانيا المسيحية. وكان من نتائج وقعة العقاب أن حررت إسبانيا من رق العبودية للمسلمين وأدرك ملوك قشتالة أن ليس من العقل مقاطعة الماضى القديم وأنهم فى حاجة بعد إلى أن يتعلموا من معلميهم القدماء ومنافسيهم الألداء من العرب فحاول ألفونس العاشر أن يعمل لإسبانيا المسيحية ما عمله العرب لإعلاء شأن الإسلام وذلك بالأخذ بأحسن ما فى الحضارتين ومزجهما بالحضارة الإسبانية فأسست سنة ١٣٥٤ فى إشبيلية مدرسة عامة لاتينية عربية وحفظ لمدينة مرسية رونقها العربى الصرف واستدعى إلى عاصمته العلماء من جميع الملل والنحل ليؤسس مدرسة طليطلة الثانية وقوامها اختيارًا حسن المعارف النافعة وهى أقرب إلى التسامح من المدرسة الأولى إذ كانت تجمع إلى التقاليد اللاتينية الحضارة العربية والعلم العبرانى.

---

(١) مجلة المقتبس المجلد الرابع.

كـان لليـهود يـد طولى فى نقل العلوم من العـربيـة إلى اللاتينيـة لأن المرابطين والموحـدين الذين اسـتولوا عـلى الأندلس بعد الأمـويين كـانوا إلى التعصب. بددوا كتب الفلسفة وأحرقوهـا ليرضوا بذلك العامة والفقهاء ولولا تراجم الإسرائيليين لضاع كثير من أوضاع مدنية العرب فى الأندلس.

ثم بدأ لرجال من الإسبان أن يسعوا فى نشر دينهم بين المسلمين فأخذوا يعنون باللغة العربية ليتعلمها الرهبـان ويجادلوا مخالفيهم بالبرهان فوضع أحد الدومنيكيين أول معجم عربى باللغة الإسبانية سنة ١٢٣٠ وفى سنة ١٣١١ - ١٢ امتـدح البابا كلمنضس الخامـس فى أحد المجامع الدينيـة من إنشاء درس لتـعليم العربيـة فى مدرسـة صلمنكة وفى أواسط القـرن الثالث عـشر كـان الدومنيكيـون مثال الغـيرة فى نشر اللغـات الشرقـية بين أبناء رهينتـهم ومنها العربية وأنشأ صاحب أراغون مدرسة لتعليم اللغات الشرقية فى ميرامار وأنشأ المجمـع الدينى فى طليطلة ينفق على طغـمة من الرهبـان مؤلفـة من ثمانـية أشخاص انقطعوا لدراسة العربية وعلى هذا ظلت الجـمعيات الدينية ولا سيما الفرنسيسكانية إلى القرن الثامن عشر فى إسـبانيا هى القائمة بدعوة المستشرقين إلى دس آداب الشرق ولغاته وتاريخه.

ولم تنل مـدرسة صلمنكة شـهرة طائلة فى أوروبـا حتى غـدت إحدى المراكز الـعلمية الأربـعة وهى باريزو أكسـفورد وبولون إلا أنهـا بتأثيـر العلم العربى أقامت على أساس معقـول تعليم العلوم الطبيعية والطب ولم يكن فى مدرسـة صلمنكة فى أواخر القـرن الثالث عشـر غير خـمس وعشـرين حلقة للتدريس منهـا حلقة لليونانية وأخـرى للعبرانية وثالثـة للعربية فأصـبحت فى القرن السادس عشر سبعين حلقة فيها سبعة آلاف طالب.

ولما أعلن الإسبانيون الحرب على جنسية العرب ومدنيتهم ودينهم ضعفت العناية باللغة العربية ولم يكتف باستصفاء جميع الجوامع وجعلها كنائس بل أخذوا ينصرون المسلمين بالإكراه وفى سنة ١٥٠١ - ٢ طردوا من مملكتى قشتالة وغرناطة كل من ظلوا محافظين على الإسلام ولم يعد للدومنيكيين والفرنسيسكانيين من حاجة لتعلم العربية ليتمكنوا من مجادلة الفقهاء عن علومهم لأنها أفسدت أفكارهم وزهد المسيحيون فى علوم المسلمين وقام فى أذهانهم أنها خطر عليهم.

صدر أمر الكردينال كسيمنس سنة ١٥١١ بعد أن أحرق فى ساحات غرناطة كمية من الكتب العربية أن تباد كتب العرب من بلاد إسبانيا عامة فتم ذلك فى نصف قرن ولولا المترجمات منها إلى العبرية واللاتينية لبادت مدنية العرب من تلك البلاد. وأخذ ديوان التفتيش الدينى على نفسه إبادة كل أثر للعرب وما كان متنصرة المغاربة فالذين دانوا بالنصرانية مكرهين ليستطيعوا إبداء أسفهم إلا سراً وفى الكتب العربية المكتوبة بالعجمية أى المكتوبة بحروف إسبانية دليل على تعلق أولئك المتنصرة بقديمهم.

وفى سنة ١٥٥٦ منع فيليب الثانى متنصرة المسلمين من استعمال اللغة العربية وأراد بهم على أن تنزع من أسمائهم التراكيب العربية وعن أجسامهم الألبسة الشرقية ليمزجهم بزعمه فى سواد أبناء المذهب الكاثوليكى ثم طردوا على عهد فيليب الثالث وكان عددهم نحو مليون نسمة على صورة قاسية سخيفة ولم يبق من الحضارة العربية واللغة العربية فى إسبانيا غير ذكراهما وزهد القوم فى القرنين السابع عشر والثامن عشر فى تعليم العربية فى إسبانيا اللهم إلا على طريقة أفرادية وغدا الاطلاع على العربية نقصاً ولربما اتهم من

يتعلمـها بالإلحـاد بعدان كان أهل الطبـقة العليـا من الإسبان أيام عـز العرب يحلون بأقوال فلاسفة العرب كلامهم ويدرسون الفلسفة العربية درس مستبصر مستفـيد لا درس ناقد عنيد ويعدون الاطلاع على الآداب العـربية من إمارات الظرف والكياسة.

وعلى هذا لم يبق لمدرسـة الفرنسيسكـان فى إشبيليـة من أساليب تعلم العربيـة إلا أثر ضئيل وأراد شـارل الثالث أن يعيـد إلى إسبانيا عـهد الآداب العربيـة فاستدعى لذلك رهبـانًا موازية من سورية ليعلمـوا الإسبانيين لغـتهم الأصلية الثانيـة ويحق للنصف الثانى من القرن الثامن عشـر أن يباهى بأساتذة متمكنين من أسرار العربية فى إسبانيا.

ولما دخل الإصلاح إلى الكلـيات القديمـة فى أواخر النصف الأول من القرن التـاسع عشـر عادت العربيـة تدرس فى جامعـات إسبـانيا رسمـيًا ولما استلمت الحكومـة الإسبانيـة سنة ١٨٥٧ زمام إصلاح التـعليم من دون رجال الدين أو الملك أو الأشراف ربحت اللغة العربية حتى كـادت تعود إليها حياتها التى كانت لها فى شبه جزيرة إسبانيا من القرن الثانى عشر إلى القرن الخامس عشر فأخذت مـعرفة اللغات والآداب العبرية والعربية تدخل من تـلقاء نفسها فى قائمـة دروس التعليم العالـى وأخذ المستـعربون ينتفـعون من المخطوطات العربية المحفـوظة فى مكتبة الأسكوريال ومكتبة الأمة ومكتـبة المجمع العلمى التـاريخى ومن المخطوطات العـربية المكتـوبة بحـروف عبـرية المحفـوظة فى كاتدرائية طليطلة. دع مكتبة خـزائن كايانكوس وكودرا ورينرا وآسين وغيرهم من رجال المشرقيات.

والعـربية اليـوم تدرس رسمـيًا فى كلـية مـجريط وغـرناطة وبرشلونة

وصلمنكة وبلنسية وإشبيلية وغيرها ولكن التدريس فيها مهمل والمدرسون غير كفاة إلا فى العاصـمة وبعض الولايات وقد نشر المستشـرقون من الإسبان منذ أواخر القرن التـاسع عشر كتـبًا عربية كـثيرة متعلقـة بتاريخ الأندلس وتراجم رجاله وبـعض العلوم التى اشتـغلوا بها ومنهـا الجيـد وأكثره مملـوء بالأغلاط والتحريف وهو دون مـا نشره الهولانديون والجرمانيون والبـريطانيون والطليان من هذا القبيل من حيث الصحة والإتقان.

وأنت ترى أن الاستشراق العربى كان الدين هو الداعى إليه كما كان فى مـعظم بلاد أوروبا ثم امـتزج الدين بحب المـدنية ثم امـتـزج كلاهمـا باسم الاستعـمار ولكن المحصول فى شـبه جزيرة أيبيـريا أى فى إسبانيا والـبرتغال قليل. وفى جامعة لشبونة عاصمة البرتغال درس عربى اليوم ومدرسة الأستاذ لوبيس الذى نشر بعض الكتب العـربية فهو المرجع فى البرتغال اليـوم كما أن الأستاذ آسين مـرجع الإسبان فى مجريط وكلاهما عـضو فى المجمع العلمى العربى.



الفهرست